الغزالي
وفلسفة بناء الذات

الطبعة الأولى
١٤٤٦ هـ/ ٢٠٢٤ م

اسم الكتاب: الغزالي وفلسفة بناء الذات
المؤلف: الدكتور إدريس الكنبوري
موضوع الكتاب: فلسفة
عدد الصفحات: ١٩٦ صفحة
عدد الملازم: ١٢.٢٥ ملزمة
مقاس الكتاب: ١٧ x ٢٤
عدد الطبعات: الطبعة الأولى
رقم الإيداع: ٣٢٩٤٧ / ٢٠٢٤
الترقيم الدولي: ٠ - ٣٣ - ٨٧٩٦ - ٩٧٧ - ٩٧٨

القاهرة - جمهورية مصر العربية
٠١٠١٢٣٥٥٧١٤
٠١١٥٢٨٠٦٥٣٣
elbasheer.marketing@gmail.com
elbasheernashr@gmail.com

جميع حقوق الطبع والنسخ والترجمة محفوظة لدار البشير للثقافة والعلوم، حسب قوانين الملكية الفكرية. ولا يجوز نسخ أو طبع أو اجتزاء أو إعادة نشر أية معلومات أو صور من هذا الكتاب إلا بإذن خطي من الناشر

الغزالي
وفلسفة بناء الذات

تأليف

الدكتور إدريس الكنبوري

دار البشير

فأما علم طريق الآخرة وما درج عليه السلف الصالح مما سماه الله سبحانه في كتابه: فقها وحكمة وعلما وضياء ونورا وهداية ورشدا، فقد أصبح من بين الخلق مطويا وصار نسيا منسيا. ولما كان هذا ثلما في الدين ملما وخطبا مدلهما، رأيت الاشتغال بتحرير هذا الكتاب مهما، إحياءً لعلوم الدين، وكشفا عن مناهج الأئمة المتقدمين، وإيضاحا لمباهي العلوم النافعة عند النبيين والسلف الصالحين

أبو حامد الغزالي

إحياء علوم الدين

تمهيد

ينظر البعض إلى تراثنا الإسلامي بوصفه ماضيا ولى قليل النفع لأبناء هذا الجيل ولكل جيل، ونجد هؤلاء يديرون ظهورهم إليه منبهرين بالثقافة العصرية الجديدة خاصة تلك القادمة من الغرب الحديث، معتبرين إياها نموذجا حيا للفكر المعاصر، بينما يرون في التراث الإسلامي تراثا جامدا غير قابل لبث الحياة فيه.

وقد جلبت هذه النظرة الغريبة التي كرستها المدارس الاستشراقية الأوروبية وقام بترويجها كوكبة من الباحثين والمفكرين العرب ذوي الميول الماركسية أو الليبرالية أو الحداثية الجديدة كثيرا من التعمية حول تراثنا الإسلامي الغني، فظهرت موجة من شذاذ الآفاق يشككون في هذا التراث ويصفونه بالتكلس والجمود وهم لم يذوقوه ولا طعموه، وأصبح الطعن في التراث "موضة" ثقافية جديدة سممت عقول المثقفين والناشئين ووسعت الفجوة بينهم وبين تاريخهم، فتحولت تلك الفجوة إلى غربة، وتحولت الغربة إلى كراهية، وأصبحت كراهية التراث سمة من سمات عصرنا.

بيد أنه بالرغم من كل هذا الصخب والضجيج حول التراث، نقدا ورفضا وتبخيسا، لا يدل في المقابل إلا على قدرة هذا التراث على الثبات، إذ كلما زاد خصومه زاد إشراقه، لأن هذا التراث ليس مجرد إنتاج علمي أملته البرامج الأكاديمية أو المخططات الرسمية التي ترسمها السياسات الثقافية للدول، بل هو إفراز من إفرازات الأمة نهض به السابقون تتميما للرسالة وأداء للواجب وجهادا بالفكر والكلمة وأمرا بالمعروف ونهيا عن المنكر، ولذلك ظل صلبا عصيا على الإزالة، كلما وجهت إليه ضربة وقام واشمخر بهامته، وما هذا

الاهتمام الكبير الواسع به شرقا وغربا في العالم كله إلا برهان على نصاعته وجدته المتواصلة وقدرته على أسر القلوب قبل النفوس.

وكتابنا هذا يأتي في إطار إعادة تقديم واحد من أجل الكتب التي يزخر بها تراثنا الفريد إلى القراء لتقريبهم من روحه النابضة، ليروا كم كان المسلمون سباقين إلى طرق أبواب من العلم والفكر غير مسبوقة، ويفتحوا أعينهم على مدرسة من مدارس التربية والسلوك وتطوير الذات من منظور إسلامي، في عصر صارت الثقافة الغربية نفسها تبحث في الروحانيات الفلسفية والوثنية لإنقاذ الإنسان الحديث من السقوط.

ونتوجه إلى دار البشير في القاهرة والمشرفين عليها بالشكر والعرفان على قبولهم نشر هذا العمل، راجيا من الله العلي القدير أن يجعله خالصا لوجهه الكريم.

الغزالي والبحث عن الذات

ما من فيلسوف أو عالم مسلم حظي بما حظي به الإمام أبو حامد الغزالي من اهتمام في الشرق والغرب على مدى القرون الماضية، ومرد ذلك ليس إلى اتساع دائرة اهتماماته العلمية وتنوع عطاءاته وتنقله بين الفقه والتصوف والفلسفة والعقيدة وعلم الكلام والمناظرات العلمية، ولكن أساسا لتميزه بتجربة روحية وعقلية خاصة، وقدرته على مواجهة الذات وممارسة النقد على قناعاته الأولى. فقد خاض مغامرة روحية وفكرية عز نظيرها، وأعمل منهج الشك في مواقفه السابقة، وعاش مرحلة من الحيرة النفسية والعقلية نقلته بعد ذلك إلى أرض جديدة.

لذلك استقطب أبو حامد الغزالي اهتمام الكثير من المفكرين والفلاسفة، وبرز بشكل خاص في العصر الحديث في أوروبا بعدما لفت إليه الأنظار الفيلسوف الفرنسي رينيه ديكارت الذي أخذ منه منهج الشك، وإن كان ديكارت قد قلب هذا المنهج الغزالي وانطلق من ذاته الفردية لإثبات وجوده، فيما كان شك الغزالي ينطلق من إثبات الموجد أولا. وإذا كان الفيلسوف القرطبي أبو الوليد ابن رشد قد نال شهرة أكبر في أوروبا في العصر الحديث، نظرا لأن أوروبا المسيحية التي كانت غارقة في الأساطير والتقليد ومحاربة حرية الفكر في القرون الماضية وجدت فيه داعية إلى العقل الذي يخرجها من ظلمات الكنيسة، فإن الغزالي يمثل نموذج التوازن الذي فقدته الحضارة الأوروبية التي تطرفت في العقلانية الجامدة كرد فعل على التقليد الجامد. فالغزالي خاض التجربة العقلانية في بداياته، وطاف عبر مسالك الفلسفة اليونانية وخبرها، تماما كما فعل ابن رشد، لكنه عكس هذا الأخير أدرك محدودية المنهج العقلاني في الإجابة

عـن تسـاؤلاته فخلـص إلى منهـج جديـد للتوفيـق بـين العقـل والـروح، وبذلـك استوعب الرشـدية ثـم تجاوزهـا، عـلى نحـو مـا يتضـح في كتابـه "تهافت الفلاسـفة" الـذي رد عليـه ابـن رشـد نفسـه بكتـاب آخـر حمـل عنـوان "تهافـت الفلاسـفة".

وقـد أدرك الفيلسـوف الهنـدي محمـد إقبـال الـدور الـذي قـام بـه الإمـام الغـزالي في تصحيـح مسـار الفكـر الإسـلامي والحيلولـة دون أن يقـع هـذا الفكـر في المصـير الـذي وقـع فيـه الفكـر الأوروبي الحديـث بعـد ثمانيـة قـرون عـلى عـصر الغـزالي. ففـي كتابـه "تجديـد الفكـر الدينـي في الإسـلام" أشـار إقبـال إلى أن المذهـب العقـلي في أوروبـا ـ وخاصـة في ألمانيـا منـذ عـصر إيمانويـل كانـط ـ بدا لـه أن الجانـب العقدي مـن الديـن مـن غـير الممكـن البرهنـة عليـه، فـكان السـبيل الوحيـد أمامـه هـو إلغـاء العقيـدة مـن سـجل المقدسـات، ومـن ثمـة سـيطر مذهـب المنفعـة عـلى الفلسـفة الأخلاقيـة، فكانـت النتيجـة أن المذهـب العقـلي "أتـم مهمتـه بهيمنـة الإلحـاد".

ويمكننـا القـول اليـوم إنـه إذا كانـت أوروبـا في عـصر التنويـر والنهضـة قـد احتاجـت إلى الرشـدية للخـروج مـن ضيـق عـالم الـروح المسـيحي، بعدمـا وفـرت لها أداة للتمـرد عـلى الإيـمان المغلـق للكنيسـة، فإنهـا اليـوم بحاجـة إلى الغزاليـة للخـروج مـن ضيـق عـالم العقـل بعـد أن تحولـت العقلانيـة الأوروبيـة إلى أداة لقتـل الـروح، ذلـك أن منهـج الغـزالي يوفـر مـا كانـت أوروبـا بحاجـة إليـه في المـاضي، وفي الوقـت نفسـه يوفـر مـا هـي بحاجـة إليـه اليـوم ومسـتقبلا، للخـروج مـن الحداثـة المتطرفـة التـي أصبحـت شـكلا مـن أشـكال الحصـار للـذات الفرديـة وانبثـاق الـروح.

وفي عـصر يتسـاءل فيـه الكثـيرون عـن "غيـاب المعنـى"، يظهـر أبـو حامـد الغـزالي مثـل ضـوء خافـت يلـوح عـن بعـد، لكـن يمنـع مـن وصـول نـوره أن "العـصر العلـماني" الـذي يعيشـه الغـرب، بتعبـير شـارلز تايلـور، يحـول دون اسـتقبال أي فكـر يتلبـس بالديـن، خاصـة إذا كان هـذا الديـن هـو الإسـلام. وقـد دل انفتـاح أوروبـا المسـيحية عـلى الرشـدية في القـرن الثامـن عـشر عـلى رفـض هـذا

البعد الديني في أي فلسفة إسلامية، إذ إن ابن رشد بالرغم من غلبة الطابع العقلاني فقد أفرغته أوروبا من كثير من بصماته الدينية، كما لو أنها أخذت الإطار وتخلت عن المحرك.

إن هذا التميز الذي انفرد به الغزالي في تاريخ الفكر الإسلامي هو ما جعل العديد من المفكرين والفلاسفة الغربيين يتجهون إليه في العقود الأخيرة، بعدما أدركوا انسداد أفق العقلانية. فقد ظهرت خلال العقدين الأخيرين بوجه خاص مؤلفات عدة بشتى اللغات أعادت الاعتبار إلى حجة الإسلام، في غمرة الجدل الدائر حول مآلات الحداثة والبحث عن الروحانيات الجديدة لإنقاذ الفرد الأوروبي المعاصر من فقدان المعنى الوجودي الذي صار مهددا بالآلة الرأسمالية الطاحنة التي حولت الإنسان إلى مجرد مستهلك، واختزلت وجوده في الناحية المادية الجسمية وجعلت حاجياته مقتصرة عليها، وأصبح إنتاج المعنى بيد مؤسسات الإنتاج وصار الفرد مجرد مستقبل للمعنى لا مصدرا له.

ولعل عودة الاهتمام بالإمام الغزالي راجعة إلى أن المسار الذي قطعه في حياته القصيرة المليئة بالثراء قريب الشبه بالمسار الذي يحتاج الفرد المعاصر إلى قطعه. فقد تنامى الوعي اليوم لدى شريحة واسعة من المفكرين الغربيين بضرورة البحث عن الذات، فعادوا ينهلون من الفلسفات الشرقية القديمة والأساطير اليونانية من أجل تغذية الجانب الفقير من الإنسان، وهي الروح؛ وهذه العودة السريعة إلى الوراء هي في حقيقة الأمر برهان على انعدام الثقة في نظرية التقدم التي آمن بها العقل الأوروبي الحديث كنظرية مقدسة لا تقبل التفنيد، بحيث صارت جزءا من عقيدة الحداثة، إذ إن الفكر الأوروبي الحديث بنى صرحه كله على تقديس التقدم إلى الأمام في كل شيء، وجعل العلم مقياس هذا التقدم، ورأى في العلم الوسيلة الوحيدة للخلاص ومنبع السعادة للفرد المعاصر. فجميع الفلسفات التي ظهرت في أوروبا الحديثة كانت تربط مصيرها بتقدم العلم، فقد زعم أوغوست كونت أن هناك قوانين

ثلاثة تحكم الوجود الإنساني لا يمكن أن تتخلف، وهي المرحلة الدينية أو الثيولوجية والمرحلة الميتافيزيقية ثم المرحلة الوضعية أو العلمية، وهذه المرحلة الأخيرة هي نهاية التطور البشري التي لن تعقبها مرحلة أخرى تليها، لأنها عنوان اكتمال الجنس البشري وكمال العقل الإنساني، ثم جاء كارل ماركس وربط فلسفته المادية كلها بالعلم، حتى سماها "المادية التاريخية"، وهو الآخر قسم الوجود البشري إلى ثلاث مراحل هي الإقطاع والرأسمالية ثم الشيوعية التي هي آخر المراحل، وجعل التاريخ يتحرك بطريقة حتمية نحو الأمام؛ وآمن إميل دوركايم بأن المجتمع البشري يمكن دراسته كما تدرس جميع الظواهر الطبيعية الجامدة لأنه يخضع لقوانين علمية صارمة، كما آمن سيجموند فرويد بأن النفس البشرية يمكنها أن تلقي كل ما بداخلها كما يُلقى الطعام من المعدة المريضة، ورأى أن للنفس علما يستطيع أن يكتشف المجاهيل والأغوار، مع أن لا أحد يعلم ما بالنفوس غير الله سبحانه﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ (ق:١٦)، ولكن علم النفس الحديث زعم أنه يستطيع أن يفعل ذلك، اغترارا بما تحصل من إنجاز في العلوم الكونية، وكان الألماني هيغل أيضا يرى أن التاريخ يسير نحو الأمام؛ وهذا الارتباط بين هذه الفلسفات وبين العلم كان يبدو للبعض دليل قوتها، بينما كان على العكس دليل ضعفها، لأنها علقت مصيرها بالعلم حتى إذا تبينت أخطاء العلم انهارت تلك الفلسفات لأن ما بني على ما هو واقع واقع بدوره.

إن هذه العلاقة المقدسة التي أقيمت بين الفلسفات الأوروبية الحديثة وبين العلم الحديث هي التي كانت وراء سرعة انهيارها، حتى أصبح الجميع يتحدث اليوم عن نهاية الفلسفات أو نهاية "السرديات الكبرى". ويعتقد الكثيرون أن نهاية السرديات الكبرى مردها عجز العقل الإنساني عن الإبداع وعن إيجاد سرديات جديدة، وهذا تفسير خاطئ، بل السبب الحقيقي وراء ذلك هو غياب الثقة في العلم الحديث الذي برهن على فشله في الوفاء بوعده للإنسان بتوفير

السعادة والكمال له، حيث تحول التقدم العلمي إلى عدو للإنسان وجعله مجرد قطعة غيار في آلة تدور، وبغياب الثقة في العلم انتهت الثقة في جميع الفلسفات التي تعلقت به وربطت نفسها بنظرية التقدم العلمي.

وما يعزز هذا التفسير أننا نجد فلاسفة الغرب يتوجهون ناحية الفلسفات الشرقية والأساطير اليونانية، وهي كلها فلسفات روحانية مناقضة لأي منطق "علمي" من جنس المنطق العلمي الوضعي الذي آمن به فلاسفة أوروبا، وهذه الفلسفات ليست في حقيقتها سوى "سرديات كبرى" لكنها من خارج السياقات الفلسفية الأوروبية التي بنيت على أساس التقدم العلمي، وهي تدل على استمرارية السرديات لا على نهايتها، ولو أردنا الحقيقة فإن السرديات الكبرى انتهت في الغرب وحده لا في العالم غير الغربي.

وقد ظهرت خلال العقود القليلة الماضية، وفي العقدين الأخيرين بوجه خاص، موجة فلسفية جديدة في الغرب تسعى إلى إيجاد سردية بديل عن السرديات الفلسفية التي أخفقت في تلبية حاجات الإنسان الروحية، يطلق عليها البعض فلسفة تنمية الذات أو تحقيق الذات أو غير ذلك من العبارات، ويطلق عليها آخرون أسامي مغايرة كالروحانية الجديدة أو الروحانية العلمانية أو المادية، وجميعها تعبر عن شيء واحد، وهو محاولة تحقيق الذات في زمن طغيان المادة، وتحقيق السمو الروحي.

ومع القبول الواسع الذي لقيه هذا المنحى الفلسفي الجديد في الغرب تحول عدد من الفلاسفة الجدد، خاصة في فرنسا ذات الطابع العلماني المتغول، ناحية الفلسفات الشرقية والأساطير الإغريقية والخرافات للاغتراف منها من أجل تقديم نوع من العلاج الروحي للشخص الغربي، بحيث أصبحت الشخصيات الأسطورية والخرافية بمثابة "أنبياء علمانيين" في زمن غياب الإيمان بالنبوة أصلا. ويمثل هذا الاتجاه اليوم كل من لوك فيري الذي انتقل

من دراسة الفلسفة إلى فلسفة روحانية جديدة، فنشر عددا من الكتب في هذا الاتجاه من بينها "الحياة السعيدة: الحكمة القديمة والروحانية العلمانية"، "حكمة الأساطير: تعلم كيف تعيش"، "ثورة الحب: من أجل روحانية علمانية"، وغيرها؛ وهناك فريديريك لونوار الفيلسوف الفرنسي الباحث في الأديان والأساطير، وقد نشر عدة كتب لقيت رواجا عالميا وترجمت إلى لغات عدة، منها "سقراط، المسيح وبوذا: ثلاثة معلمين للحياة"، و"قوة الفرح"، و"كتاب الحكمة: الروحانيات الإنسانية القديمة"، و"رسالة في الحياة الباطنية" وغيرها؛ ونجد أيضا الفيلسوف الفرنسي الملحد ميشيل أونفري ـ بمعنى أنه لا يؤمن لا بالأديان ولا بالأساطير خلافا للسابقين ـ الذي نشر كتابا تحت عنوان "حكمة" حاول فيه تقديم إجابات فلسفية عن قضايا روحية مثل الموت والسعادة والحزن والخوف والقيم؛ ونجد إلى جانب هؤلاء الفيلسوف المعمر إدغار موران الذي ألف كتبا عدة مثل "الطريق: من أجل مستقبل الإنسانية"، و"لنستيقظ"، و"طريق الأمل"، و"الإنسان والموت" وسواها.

ولاقت هذه الكتب التي تقع في نقطة التقاطع بين الفلسفة وعلم النفس واللاهوت رواجا كبيرا في الغرب، وهو ما يؤشر على فشل العلمانية والحداثة وعلى الانعطاف نحو نوع من "التدين العلماني" كما صار يعرف اليوم في مجال الفلسفة الغربية، وذلك نتيجة انحسار القيم الروحية والشعور بالضياع والغربة وسط الحداثة القاسية، وبدل أن تقدم هذه الفلسفة الجديدة لبناء وتنمية الذات تصورا جديدا لإعادة بناء المجتمع والخروج من نزعة الفردانية، أعادة تكريس هذه النزعة من خلال التركيز على التنمية الذاتية الفردية والخلاص الفردي لحل وحيد لمجابهة تحديات العصر وأزماته الروحية.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل اتجه عدد من الفلاسفة الجدد في الغرب إلى إعادة قراءة فلاسفة اليونان وعصر التنوير الأوروبي قراءة جديدة تغلب الجوانب الروحانية لديهم وتنبش في كتاباتهم بشكل انتقائي عما يمكن أن

يكـون مصـدرا للتنميـة الذاتيـة، ومثـل هـذه القـراءة لا تفـرق بـين الفلاسـفة المثاليين والفلاسـفة الماديـين، ولا بـين الملحديـن الذيـن ثـاروا ضـد المسـيحية والكنيسـة والآخريـن الذيـن ظلـوا عـلى العقيـدة الكاثوليكيـة أو تحولـوا إلى البروتسـتانتية. وهكـذا أصبـح فلاسـفة أمثـال سـقراط وأفلاطـون وسـبينوزا ونيشـته وديـكارت وغيرهـم منابـع للحكمـة والحيـاة السـعيدة، تتـم قراءتهـم قـراءة صوفيـة جديـدة بعـد أن كانـوا طيلـة أزيـد مـن قـرن نـماذج للعقلانيـة الصارمـة والعلمويـة، ولم يعـد الكوجيطـو الديـكارتي "أنـا أفكـر إذن أنـا موجـود" شـعارا للتفكـير العقـلي وتمجيـد التفكـير، بـل أصبـح شـعارا لتمجيـد التفكـر في النفـس لا في العقـل، وصـار نيتشـه السـاخط عـلى كل شيء نموذجـا للسـوبرمان الـذي يتحـدى الظـروف لخلـق سـعادته الخاصـة، أمـا سـبينوزا الـذي كان في المـاضي رمـزا للإلحـاد ونقـد الكتـاب المقـدس فقـد أصبـح رمـزا للإيـمان والبحـث في الألوهيـة. ومـن مفارقـات هـذه الفلسـفة الترقيعيـة الجديـدة أن الفيلسـوف الألمـاني شـوبنهاور المعـروف بتشـاؤمه المتطـرف أصبـح رمـزا للتفـاؤل والعيـش السـعيد، وأعيـد الاعتبـار إلى الطبيـب النفسـاني غوسـتاف يونـغ الـذي كان يعـارض مدرسـة التحليـل النفـسي الفرويديـة، وأهمـل هـذا الأخـير وأصبـح مجـرد داعيـة إلى ممارسـة الجنـس الـذي شـبع منـه الغربيـون. ولكـن الظاهـرة الملفتـة في هـذه الفلسـفة الجديـدة أنهـا تحـاول علمنـة الأخـلاق والقيـم وتحويلهـا مـن قيـم جماعيـة إلى قيـم فرديـة، وأن تقـدم مشروعـا جديـدا للارتقـاء الفـردي يسـتوعب كافـة الشرائـح والاتجاهـات، المتديـن والعلـماني والملحـد واللادينـي، وتسـتوعب جميـع الأفـراد مـن أي ثقافـة أو ديانـة كانـوا، ولعلها الفلسـفة الوحيـدة في الغـرب اليـوم التـي تتجـاوز الفروقـات الإيديولوجيـة والدينيـة والطبقيـة والثقافيـة والاجتماعيـة، وتحـاول مخاطبـة الإنسـان كإنسـان لديـه روح.

وقـد انتـشرت هـذه الظاهـرة في العـالم العـربي في العقديـة الأخيريـن تحـت مسـمى "التنميـة الذاتيـة"، منتقلـة إلينـا مـن الغـرب، وبـدأت الـدورات التدريبيـة للأفـراد وانتـشرت الكتـب المترجمـة عـن اللغـات الأجنبيـة خاصـة الإنجليزيـة، تـدور حـول

تنمية الذات وتطوير الذات وتحفيز الذات والبرمجة العصبية وصناعة المستقبل وغيرها من المحاور الرئيسية التي استقطبت اهتماما واسعا لدى الشباب من الجنسين. ومثلت الكتب المترجمة الرافد الأول الرئيسي للتنمية الذاتية في العالم العربي، فقد تهافتت دور النشر العربية على ترجمة هذه الكتب ونشرها وتوزيعها على نطاق واسع و"تحليتها" بعبارات مغرية للشباب مثل: الكتاب الأكثر مبيعا في العالم ـ الكتاب الذي يجعلك سعيدا ـ كيف تكتسب الثقة في الذات ـ كن قويا ـ كيف تصبح إيجابيا ـ الكتاب الذي يضع بين يديك مفاتيح النجاح ـ الكتاب الذي لن تحتاج إلى غيره ـ فن تقدير الذات ـ تقنيات النجاح ـ السعادة الحقيقية... إلخ.

ولكن هذه الكتب ليست كتبا بريئة، فهي تحوي مضامين نابعة من الأناجيل أو التوراة، أو من تجارب شخصية لأشخاص ينتمون إلى ثقافات مختلفة ذات قيم مغايرة، وهي تركز بشكل خاص على النزعة الفردية التي هي انعكاس لفلسفة الفردانية ذات المنشأ الأوروبي، والتي تؤكد على أن النجاح والخلاص مسألة فردية يصنعهما الإنسان بإرادته ولو كان ذلك على حساب الآخرين. وأخطر ما في هذه الكتب والبرامج التي أصبحت ذات سوق رائجة في المكتبات والشارع ومواقع التواصل الاجتماعي أنها لا تميز بين القيم النبيلة والأخرى الفاسدة، لأن المبدأ المعتمد هو النجاعة والمردودية، وبوسع المرء أن يكون أنانيا أو متعجرفا أو مستبدا إذا كان ذلك يمكنه من النجاح بسرعة، ولأن الحياة مزاحمة فلا بد من السرعة وسبق الآخرين واستعمال مختلف الوسائل للوصول إلى القمة، وكأنها تحاكي قول الشاعر:

وما نيل المطالب بالتمني ولكن تؤخذ الدنيا غلابا

وذلك بالمعنى الظاهر، أن المغالبة والمقاتلة من أجل نيل النجاح. وهي تستشهد بأقوال الإنجيل وحكماء الصين والهند والرموز المسيحية المقدسة عند النصارى، أو بالفلاسفة الأوروبيين، وتعرض تجارب الفنانين والمغنين والراقصين وكبار رجال الأعمال مع النجاح والتفوق وجمع المال.

ولكن ما الغاية من كل هذا الجري وراء حظوظ النجاح؟

إن المقصود بالنجاح هو الوصول إلى الرغائب الشخصية في الحياة الدنيا، وأسمى هذه الرغائب هو الثراء المادي، لذلك انتشرت بالموازاة مع كتب التنمية الذاتية الكتب التي تتحدث عن شروط وإمكانيات تحصل الثروة، وما ينبغي على المرء أن يكرس نفسه له حتى ينال هذه الثروة. ولو بحثنا في عمق هذه الفلسفة لوجدنا أنها محاكاة للنزعة المادية بأسلوب مختلف، فهي لا تخرج عن المنطق الرأسمالي الذي يمتدح النزعة الفردية، وقد لا تخالفها إلا قليلا في ذم الاستهلاك.

بيد أن الآفة الأكبر في هذه الفلسفة الجديدة التي عمت العالم العربي وأصبح يقبل عليها الشباب أنها تغيب العالم الأخروي، وتجعل البعد الدنيوي هو البعد الوحيد في حياة الإنسان، إذ تكرس قيم التنافس والصراع والنزعة الذاتية الفردية والكسب والسعي لكسب الموقع الأول والاعتماد على النفس والتدريب النفسي والبرمجة الصارمة، ولا تنادي بقيم الخير والتسامح والعطاء والتواضع وخدمة الآخرين والصبر والقناعة والإيمان بالقضاء والقدر والتوكل والثقة في الخالق.

ولكن أمام زحف هذه القيم ظهرت موجة جديدة تسعى إلى صد هذه الهجمة القيمية على العقل المسلم، تحاول "أسلمة" هذه الفلسفة الذاتية عبر تطعيمها بالقيم النابعة من القرآن والسنة، وربط الإنسان المسلم بدينه وأصوله، وقد نجحت إلى حد معين في توجيه القارئ العربي إلى ثقافته الإسلامية.

ويزخر تراثنا الإسلامي بالكثير من العطاء في هذا الباب، ولكن هذا العطاء الغني ظل مركونا بين دفات الكتب يُقرأ كما يقرأ التراث الميت القديم دون قدرة على إعادة إحياءه وتقديمه في حلة جديدة تساير العصر وتناسب عقول الشباب العربي المعاصر الذي لا يملك القدرة أو الوقت أو الرغبة في الرجوع

إلى تلك المؤلفات الغليظة في عصر القراءة السريعة وسيطرة الثقافة العابرة. وإذا كنا ننتقد المثقفين الغربيين الذين اتجهوا هذا الاتجاه لأسباب تتعلق بمضامين القيم التي يدعون إليها، فلا أقل من الإنصاف والقول بأنهم نجحوا في تبسيط الفلسفات الأوروبية المعقدة بل "أنسنة" الشخصيات الأسطورية الخرافية اليونانية وجعلها منابع للقيم التي يريدون الترويج لها، بينما تركنا نحن تراثنا العربي الإسلامي الزاخر محنطا في أساليبه القديمة التي لا يستسيغها شباب اليوم، بل أصبح حتى المثقفون يمجونها ويأنفون منها لأنها بالنسبة إليهم مؤلفات "كلاسيكية".

يمكن اعتبار "إحياء علوم الدين" للإمام أبي حامد الغزالي من أهم الكتب في تراثنا الإسلامي التي صاغت مشروعا متكاملا للتنمية الذاتية انطلاقا من التصور الإسلامي، تنطلق من مرجعية الكتاب والسنة والصحابة ورجال التربية والسلوك. وتنبع أهمية هذا الكتاب من كونه خلاصة تجربة حياة عاشها الغزالي شخصيا وليس إنتاجا نظريا، ويمكن مقارنته في ذلك ـ رغم اتساع البون ـ مع اعترافات أوغوسطينوس وجون جاك روسو، فهذان الأخيران عانيا تجربتهما الخاصة في اكتشاف الحقيقة، فقادت التجربة الأولَ إلى صياغة منظوره الخاص للفلسفة المسيحية، وقادت الثاني إلى صياغة نظرية في التربية.

لقد قاسى الغزالي كثيرا في سبيل الاهتداء إلى الحق بين التيارات المضطربة، وصب جماع تلك المعاناة في كتابه "المنقذ من الضلال" الذي يدل عنوانه عليه. فقد سعى الغزالي سعيا حثيثا إلى إنقاذ نفسه من ضلالات التيارات المتضاربة التي كان يمور بها عصره، وأعمل النظر في جميع الفلسفات التي كانت موجودة في محيطه، واتصل وتواصل. غير أن تجربة الغزالي لم تكن مجرد تجربة ذهنية أو استجابة لحاجة عقلية كما هو الأمر عند الفلاسفة الذين يتحيرون مع الأفكار والنظريات المجردة والتصورات، بل كانت تجربته تجربة نفسية وروحية قضت مضجعه وأوجعت ضميره وأطارت من عينيه النوم أياما متواصلة، وهو

منهج المسلم المؤمن الذي يبدأ بالنفس أولا لإصلاحها، فإذا انصلحت النفس انصلح منهج التفكير العقلي، لأن الله سبحانه خاطب في الإنسان نفسه "ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها".

يروي الغزالي في كتابه المنقذ كيف لازمته الحيرة منذ راهق البلوغ إلى أن بلغ الخمسين من العمر، وهذه ليست مجرد مدة زمنية يعيشها المرء بل حياة كاملة؛ وإذا كان الغزالي قد عانى كل هذا العمر فقد أعطانا خلاصة حياة الإنسان المسلم، فالمسلم منذ أن يعي الحياة الدنيا عليه أن يسعى إلى الهداية وأن يوطن نفسه على البحث عن الحق والثبات عليه؛ يقول الغزالي: "ولم أزل في عنوان شبابي، منذ راهقت البلوغ قبل بلوغ العشرين إلى الآن وقد أناف السن على الخمسين، أقتحم لجة هذا البحر العميق، وأخوض غمرته خوض الجسور، لا خوض الجبان الحذور، وأتوغل في كل مُظلمة، وأتهجم على كل مشكلة، وأتقحم كل ورطة، وأتفحص عن عقيدة كل فرقة، وأستكشف أسرار مذهب كل طائفة، لأميز بين محق ومبطل، ومتسنن ومبتدع".

والإمام أبو حامد من الذين وثقوا سيرتهم الروحية والفكرية، وصبها صبا في مجموع كتبه مفرقة لكي تكون نبراسا للأجيال من بعده، فكأنه أراد أن تدوم مجالسته للمسلمين حتى بعد وفاته ﵀ عبر مؤلفاته، إذ إنه كرس آخر عمره لـ"مجالسة أهل القلوب، والقعود للتدريس، بحيث لا تخلو لحظة من لحظاته ولحظات من معه عن فائدة" كما يقول عنه الحافظ بن عساكر الذي خصه بباب مطول في كتابه "تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام الأشعري".

ولا شك أن هذه السيرة الروحية كانت مرآة انعكست عليها الأحوال السياسية والاجتماعية والدينية التي عاشها الغزالي في حقبة من التاريخ عسيرة، تجمعت فيها كل عناصر الإخفاق والهزيمة في صف المسلمين؛ فعندما ولد الغزالي عام ٤٥٠ للهجرة/ ١٠٥٨ للميلاد في بلدة طوس كان العالم

الإسلامي موزع الأطراف في الشرق والغرب، وانتشرت الفتن والقلاقل المذهبية والسياسية بين المسلمين، مما أضعف الجبهة الداخلية وغرس القابلية للاستعمار بتعبير مالك بن نبي، وكان الصليبيون قد استجمعوا قوتهم في عموم أوروبا المسيحية للزحف على البقاع المقدسة في العالم الإسلامي، وشرعوا في توحيد صفوفهم وحشد المقاتلين والمتطوعين تنفيذا لدعوات الكنيسة الكاثوليكية من أجل الحرب المقدسة، بعدما رأوا من ضعف المسلمين ما ظنوا أنه يُمكنهم من الغزو واستعادة الأماكن المسيحية المقدسة.

فتح الإمام الغزالي عينيه على هذا الواقع الذي كان يتغير تحت بصره، وأدرك ميل كفة الميزان إلى الطرف الصليبي بفعل عوامل الهزيمة الداخلية والفساد وطغيان التدين الشكلي، واتجه إلى التعلم حيث رحل إلى نيسابور بعد مرحلة التحصيل الأولى في طوس، وهناك درس على يد شيخه إمام الحرمين أبي المعالي الجويني فبرز بين أقرانه وظهر نبوغه بشكل مبكر، وكان الجويني قد عاد آنذاك من منفاه بمكة والمدينة اللتين فر إليهما تاركا خراسان بعد أن عانى من المحنة التي قاساها الأشاعرة في عهد السلاجقة، قبل أن تتبدل الظروف بتولي نظام الملك الوزارة في الدولة السلجوقية، الذي كان متعاطفا مع الأشاعرة، وأنشأ المدرسة النظامية الشهيرة التي كان لها دور كبير في الإصلاح الديني والفكري والسياسي، وفيها درس الغزالي على يد الجويني.

وبعد أن نال حظه من العلوم رحل إلى بغداد حيث قام بالتدريس في مدرستها النظامية، وهناك طار إشعاعه، وصار يلقب بألقاب جليلة مثل «زين الدين» و«شرف الأئمة»، ثم لقب «حجة الإسلام» الذي أطلق عليه فيما بعد وأصبح لصيقا به، وظل متفرغا للتدريس إلى أن اعتزل، وتوفي عام ٥٠٥ للهجرة/ ١١١١ للميلاد.

لقد جرب الغزالي مختلف أصناف العلوم وخاض غمارها وجادل أصحابها،

وبذلك يمكن القول إنه خبر جميع معارف عصره وتدرج فيها من الفلسفة إلى علم الكلام والفقه ثم السلوك والتربية، وفي كل تلك المراحل التي قطعها مع تلك العلوم كان لديه منهج واضح، وهو ربط العلوم بالعصر ومعرفة ما إن كانت قادرة على تحقيق الإقلاع للأمة وإخراجها من مرحلة النكوص إلى مرحلة الفاعلية؛ فالغزالي لم يكن من أصحاب نظرية العلم للعلم، كما لم يكن من أنصار نظرية التراكم، ولم يكن ينظر إلى الجانب الفردي في تحصيل العلوم ووقف نفسه على توسيع مجالات الاطلاع، وإنما كان يشرئب إلى هدف أكبر هو ربط تلك العلوم بضمير الأمة من أجل إحيائها، والبحث عن أقرب الطرق إلى تحفيز روح النهوض في أفرادها أمام الهجمة الحضارية التي كانت تتعرض لها من طرف الصليبيين، ولذلك كان شغله الشاغل إعادة ربط الفرد المسلم بعقيدته أولا، وهذا الانشغال هو الذي دفعه إلى مساجلة الفلاسفة والمتكلمين والفقهاء والصوفية، لأن هدفه كان هو تحويل الفكر إلى حركة في الواقع، والحركة لا يمكن أن تنبعث إلا من عقيدة قوية تعيد بناء الفرد من جديد.

وقد يمكن القول إن تجربة الإمام الغزالي هي تجربة معاصرة لنا ولكل عصر يجتاز نفس الظروف، فتدرج الغزالي في مختلف المعارف وسعيه الحثيث إلى البحث عن الحقيقة ومعاناة القلق الروحي والنفسي لبلوغ هذه الغاية معناه بلغة هذا الزمان أنه جمع في نفسه خلال مدة حياته مختلف أصناف النخب الفكرية والثقافية، فقد كان في كل مرحلة يرسو فيها في مدرسة فكرية معينة يعد جزءا من النخبة التي تنتمي إليها تلك المدرسة، وما إن يتركها حتى يرتبط بنخبة مدرسة جديدة، فكما لو أنه قام في حياته بعملية تشريح لعصره من النواحي الثقافية والفكرية ووجد أن تلك المناهج التي جربها لم تؤد إلى نتيجة، إلى أن رسا في الأخير عند مشروع نهائي رأى فيه حاجة الأمة إليه، وقدرته على إخراجها من الجمود إلى القوة، وهو المشروع الأخلاقي التربوي.

وذلك هو الدرس المستفاد من تراث الغزالي في عصرنا الذي هيمنت

فيه روح التبعية والتقليد والشكلية والتفرقة والحملات الأجنبية على الأمة، فإن كل تلك المناهج التي جربها المسلمون خلال نحو قرن من الزمن لم تفد في تحريك الأمة وتقوية عودها، فهي إما مناهج ترى في الجانب الاقتصادي علاجا لأمراض الأمة، أو ترى في الجانب السياسي ذلك العلاج، أو تراه في تنقية التراث العقلي، أو في تقليد الحضارة الغربية، لكنها جميعا لم تلتفت إلى العنصر الأهم في كل بناء حضاري وهو الفرد والجانب العقدي والأخلاقي فيه، لأن جميع المناهج مهما بلغت قيمتها لن تستطيع شيئا طالما ظل الفرد فارغا من الناحية الروحية ليس له حافز داخلي يدفعه. وبهذا الاعتبار نستطيع القول بأن الغزالي عندما كان يحاكم مناهج عصره الفكرية والثقافية كان يساعدنا في تكوين منهج نرى به عصرنا.

ومن هنا ربط الغزالي بين المشروع التربوي وأهداف الأمة الكبرى، بعدما رأى الحاجة إلى ربط الفكر بالممارسة، وهو منهج يرد على من اتهموه بالتخلي عن الدعوة إلى الجهاد في زمنه الذي شهد تكالب الصليبيين على العالم الإسلامي في الغرب والشرق؛ فالغزالي كان له منظوره الخاص للجهاد، وهو عندما انتقد الفقهاء لم ينتقدهم بسبب موقف لديه من الفقه وقد كان أحد كبار الشافعية، وإنما انتقدهم لما رأى فيهم من الوقوف على شكليات الفقه معزولة عن التربية، ومن تحويل الفقه إلى مجرد لائحة من الوصايا دون تربية داخلية للفرد، فكان يرى من تم أن إعادة تربية الفرد المسلم ورفع همته تجعل ارتباطه بالفقه ارتباط عمل في الواقع لا مجرد ارتباط بتعاليم أو «طقوس» تؤدى عن طريق البدن.

وقد بسط هذا في «المنقذ من الضلال»، حيث بين أهمية ربط العلم بالعمل، وأن العلم أيسر من العمل لأن طلبه بدون عمل يشترك فيه الجميع، ولكن التفاوت يحصل بين العالمين والممارسين، وبين أن الهدف من التربية هو «تبدل الصفات»، ولعله بذلك كان يقصد الآية الكريمة «لا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم»، وضرب مثلا لذلك بالفرق بين معرفة حد الشبع وحالة

الشبع، ومعرفة حد السكر وحالة السكر، حيث يقول :»ثم إني لما فرغت من هذه العلوم أقبلت بهمتي على طريق الصوفية، وعلمت أن طريقتهم إنا تتم بعلم وعمل، وكان حاصل علومهم قطع عقبات النفس، والتنزه عن أخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة، حتى يتوصل بها إلى تخلية القلب عن غير الله تعالى وتحليته بذكر الله. وكان العلم أيسر علي من العمل، فابتدأت بتحصيل علمهم من مطالعة كتبهم ... فظهر لي أن أخص خواصهم ما لا يمكن الوصول إليه بالتعلم بل بالذوق والحال وتبدل الصفات. وكم من الفرق أن تعلم حد الصحة وحد الشبع وأسبابها وشروطها، وبين أن تكون صحيحاً وشبعان؟ وبين أن تعرف حد السكر، وأنه عبارة عن حالة تحصل من استيلاء أبخرة تتصاعد من المعدة على معادن الفكر، وبين أن تكون سكران! بل السكران لا يعرف حد السكر، وعلمه وهو سكران وما معه من علمه شيء. الطبيب في حالة المرض يعرف حد الصحة وأسبابها وأدويتها، وهو فاقد الصحة. فكذلك فرق بين أن تعرف حقيقة الزهد وشروطه وأسبابه، وبين أن تكون حالك الزهد، وعزوف النفس عن الدنيا، فعلمت يقيناً أنهم أرباب الأحوال، لا أصحاب الأقوال. وأن ما يمكن تحصيله بطريق العلم فقد حصلته، ولم يبق إلا ما لا سبيل إليه بالسماع والتعلم، بل بالذوق والسلوك».

وليس أدل على إيمانه بالجهاد من فتواه الشهيرة إلى الأمير المرابطي يوسف بن تاشفين التي حثه فيها على ضم ممالك المسلمين في الأندلس إليه لدفع الصليبين الذي كانوا يتحرشون بملوك الطوائف، بل إنه كان قد عزم على السفر إلى مراكش لمقابلته لكنه رجع بعد أن علم في الطريق بوفاته، كما أن كتاب «إحياء علوم الدين» وصل إلى الغرب الإسلامي وتلقفه العلماء والفقهاء والصوفية، في مرحلة صعبة كان صدى هزائم الممالك الأندلسية على يد ملوك النصارى يتردد في المغرب، ولولا أنهم رأوا فيه ما يستجيب لحاجة عصرهم ما استقبلوه ذلك الاستقبال الواسع، فقد كان الغزالي يرى أن الجهاد لا يمكن

أن يتحقق ما لم تتحقق المجاهدة، أي التغلب على آفات النفس وعوامل الهزيمة فيها، ولعله بذلك كان يستحضر ذلك الحديث المنسوب إلى النبي صلى الله عليه وسلم «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر» أي مجاهدة النفس.

ولعل هذا العصر قريب الشبه إلى عصر الإمام الغزالي من حيث تعدد التيارات واختلاف المسالك واضطراب السير، فقد كثرت أسباب المزالق وتنوعت أشكال الانحراف، وأين السالك اليوم من همة الغزالي؟ لذلك نحتاج اليوم إلى إحياء كتاب الإحياء كي يكون منارا يهتدي به السالكون إلى الحق بين الأمواج العاتية. فالتيارات الجارفة اليوم تدفع الكثيرين إلى تقليد كل جديد، والسير وراء كل دعوة، وهو نفسه ما عاشه الغزالي قبل أن يلقي عصاه، فقد ذكر في كتاب المنقذ "وقد كان التعطش إلى درك حقائق الأمور دأبي وديدني من أول أمري وريعان عمري، غريزة وفطرة من الله وُضعتا في جبلتي، لا باختياري وحيلتي، حتى انحلت عني رابطة التقليد".

وقد حاولنا في هذا الكتاب أن نستجمع شتات كتاب الإحياء ومتفرقاته المنثورة في صفحاته الضخام، وأن نقرب ما أمكن أهم النظريات التربوية التي حواها في هيئة عقد منظوم، حتى يستأنس به القارئ ويجد فيه ما يغنيه عن غيره من الكتب السيارة في فلسفة التنمية الذاتية.

وقبل أن نغادر هذه المقدمة نود الإشارة إلى أن كتاب الإحياء من أهم الكتب التي لقيت رواجا وانتشارا طيلة تاريخ الإسلام من لدن العلماء والفقهاء والمربين والمفسرين، إذ كان الناس ينسخونه وينقلونه وبعضهم يتبرك به، حتى إن الدكتور عبد الرحمان بدوي يذكر في كتابه "مؤلفات الغزالي" نحوا من مائة وعشرين مخطوطا في مكتبات العالم لكتاب الإحياء. وقد طبع طبعات كثيرة، كما نقلت منه أجزء كثيرة إلى لغات عالمية عدة، وتناوله علماء كثيرون بالشرح، منهم المرتضى الزبيدي وعبد القادر العيدروس الذي قيل

إنه كاد يحفظه، وغيرهما، وظهرت له عشرات التلخيصات لعلماء كثيرين عبر القرون، وأول من قام بتلخيصه أخوه أحمد بن محمد الغزالي، وقد مدحه قوم حتى غلوا في مدحه وقالوا: من لم يقرأ الإحياء فليس من الأحياء.

هذا وقد قسم الإمام الغزالي كتابه تقسيما لم يسبق إليه أحد، فقد جعله أربعة أرباع، وهي كالتالي: الربع الأول في العبادات، الربع الثاني في العادات، الربع الثالث في المهلكات، والربع الرابع في المنجيات.

وهذا التقسيم المنهجي الذي اختاره الغزالي جمع فيه بين الفقه والسلوك.

وقد جعل لكل ربع عشرة كتب، في كل كتاب أبواب تختلف من حيث الحجم حسب الموضوع الذي يعالجه، وفي كل با ب فصول، فجاء الكتاب مرتبا من الناحية المنهجية، كأن الغزالي كان يريد لكتابه أن يكون مدونة تربوية تأخذ بيد القارئ خطوة خطوة. فقد بدأ بالعبادات التي هي رأس الشريعة، ثم أتبعها بالعادات ثم المهلكات ثم المنجيات، فرسم بذلك معالم الشريعة كلها، حيث بين العبادات وأنواعها وأعقب بالعادات التي يأتيها الإنسان في حياته اليومية المعيشية، وأتبعهما بالمهلكات للتحذير من اختلاط العادات والعبادات بما ليس من الشريعة أو بما يترقى بحال الإنسان إلى الإخلاص، وأخيرا بالمنجيات التي رسم فيها معالم النجاة من المهلكات.

العقل

العقل عند الإمام الغزالي وعاء العلم، والآلة التي يتم بها استخراج العلوم. وذلك أن العقل هو وسيلة تحصيل العلوم، والوعاء الذي تُصب فيه المعرفة، والغريزة الإدراكية التي تميز الإنسان عن الحيوان، وبها يرتبط التكليف في الإسلام.

إن كلمة "عقل" في اللغة العربية مأخوذة من الجذر اللغوي عين قاف لام، ويدل فعل "عَقَلَ" على الربط والإحكام والمنع، فكأن العقل هو الغريزة الداخلية في الإنسان التي تعقله عن فعل الأشياء القبيحة، أي تمنعه من فعلها. وهذا المعنى للعقل هو معنى أخلاقي بالطبع، لأن العقل بدون أخلاق قد يقود إلى المهالك والإفساد في الأرض، فإذا كان العقل منبع المعرفة فإن معرفة بدون أخلاق هي معرفة مجردة بدون أهداف إنسانية، وهذا المعنى الأخلاقي هو الذي يميز مفهوم العقل عند المسلمين عن مفهومه عند الغربيين، لأن العقل عند الغربيين يدل على آلة التفكير والتعقل فحسب، وليس له مدلول أخلاقي يمنع الإنسان من عدم توظيف المعارف في أسوأ الشرور.

وقد ورد العقل في القرآن الكريم بعدة معان، منها النُّهى، واللُّب، والقلب، والفكر، والحِجر، وكلها ألفاظ تفيد معاني الإدراك والفهم والتدبر. قال ابن كثير في تفسير الآية ﴿هَلۡ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٞ لِّذِي حِجۡرٍ ۝٥﴾(الفجر ٥)، قال: "أي لذي عقل ولب وحِجا، وإنما سمي العقل حجرا لأنه يمنع الإنسان من تعاطي ما لا يليق من الأفعال والأقوال، ومنه حِجر البيت، لأنه يمنع الطائف من اللُصوق بجداره".

نلاحظ أن الغزالي رتب كتابه ترتيبا منطقيا، فجعله كالبناء المرصوص، بحيث يرتقي القارئ في المعارف والعلوم تدريجيا من البسيط إلى المركب، ومن الأولي إلى الأساسي. فقد بدأ بالحديث عن العلم وأصنافه، أي بإرادة التعلم، وهو المحتوى، ثم في المرحلة الثانية من الكتاب انتقل إلى الحديث عن العقل، فكأنه قدم المحتوى المعلوم على الآلة العالمة، ولو تدبرنا في هذا الترتيب لوجدناه ترتيبا منهجيا تعليميا.

يدافع الغزالي على أهمية العلم في حياة الفرد والمجتمع انطلاقا من منطق العقل، فبالعقل ندرك أن العلم ضرورة للرقي الإنساني، وسمو الإنسان على الدواب، وتقدم الجنس البشري، وبالعلم يحصل الإنسان على سعادة الدنيا والآخرة.

يقول الغزالي إن "العقل منبع العلم ومطلعه وأساسه"، فهو بالنسبة إليه مصدر المعارف كلها. ويشبه الغزالي العقل بالشجرة والعلم بالثمرة، كما يشبهه بالشمس، ويشبه العلم بالنور الذي ينبعث منها، ويشبهه أيضا بالعين ويشبه العلم بالرؤية، وبدون العين لا يمكن أن تتحقق الرؤية للإنسان، فالعقل بهذا المعنى يفيد رؤية الأشياء والظواهر بالغريزة المركوزة في الإنسان والتي تميزه عن سائر المخلوقات. وبحسب الغزالي فإن الله سمى العقل نورا في قوله تعالى: ﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ ﴾(النور ٣٥)، وسمى العلم المستفاد منه روحا ووحيا في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَا﴾ (الشورى ٥٢).

وانطلاقا من التصور القرآني للشخص الجاهل الذي لا يميز بين الحق والباطل، وبين الخير والشر، يرى الغزالي أن العقل هو الميزة الرئيسية التي تميز الإنسان، ويضرب مثلا على ذلك بعلاقة الإنسان بالبهيمة، إذ يرى أن حتى أكثر البهائم قوة وأعظمها بدنا وأشدها صلابة وأقواها سطوة، تخشى الإنسان وتتهيب منه، لما تعرف فيه من قدرة على الاستيلاء عليها، بسبب ما يتميز به من قدرة على استعمال الحيل.

يطلق العقل على أربعة معان، ولذلك فليس له حد واحد وإنما يختلف التعريف بحسب النوع. فالنوع الأول هو الوصف الذي يفارق به الإنسان سائر البهائم "وهو الذي استعد به لقبول العلوم النظرية وتدبير الصناعات الخفية الفكرية"، والمقصود عند الغزالي غريزة الاستعداد لفهم العلوم التي خص الله بها الإنسان دون الحيوان، وهذا ما عناه الحارث المحاسبي الذي ينقل عنه الغزالي قوله أن العقل "غريزة يتهيأ بها إدراك العلوم النظرية، وكأنه نور يقذف في القلب، به يستعد لإدراك الأشياء".

والنوع الثاني للعقل هي العلوم التي تخرج إلى الوجود لدى الطفل المميز، أي العلوم الضرورية المحصلة بالبديهة، كالعلم بأن الإثنين أكثر من الواحد، وأن الشخص الواحد لا يكون في مكانين في وقت واحد، وهو الذي عناه بعض المتكلمين الذين قالوا في تعريف العقل إنه "بعض العلوم الضرورية، كالعلم بجواز الجائزات واستحالة المستحيلات".

والنوع الثالث هو العلوم التي تستفاد من التجارب ومجاري الأحوال "فإن من حنكته التجارب وهذبته المذاهب يقال إنه عاقل في العادة، ومن لا يتصف بهذه الصفة فيقال إنه غبي غمر جاهل، فهذا نوع آخر من العلوم يسمى عقلا".

أما النوع الرابع فهو العقل الإخلاقي، وذلك بأن تكون نتيجة العقل الغريزي أن يعرف الإنسان عواقب الأمور "ويقمع الشهوة الداعية إلى اللذة العاجلة ويقهرها، فإذا حصلت هذه القوة سمي صاحبها عاقلا من حيث إن إقدامه وإحجامه {يكون} بحسب ما يقتضيه النظر في العواقب لا بحكم الشهوة العاجلة".

فالغزالي يجعل هذا النوع الرابع من أنواع العقل منتهى الغريزة العاقلة وغايتها، بحيث يربط بين وظيفة العقل والغاية الأخلاقية، إذ لا يكون العاقل

عاقلا ما لم يرشده عقله إلى معرفة عواقب أعماله وينقذ نفسه من النار يوم القيامة، فلا فائدة في معرفة تكب صاحبها في النار؛ وهنا نلاحظ كيف يدرج الغزالي مفهوم العقل في إطار مشروعه التربوي، لذلك نراه يضع تراتبية بين تلك الأنواع الأربعة حين يقول: "فالأول هو الأس والسَّنخ (الأصل) والمنبع، والثاني هو الفرع الأقرب إليه، والثالث فرع الأول والثاني، إذ بقوة الغريزة والعلوم الضرورية تستفاد علوم التجارب، والرابع هو الثمرة الأخيرة، وهي الغاية القصوى، فالأولان بالطبع، والأخيران بالاكتساب".

يحيلنا لفظ الاكتساب عند الغزالي إلى التربية الأخلاقية، فقد يتحقق للإنسان النوعان الأول والثاني من أنواع العقول، ويفلح في تحصيل المعرفة وبناء الحضارة المادية، حضارة التراكم، لكنه يظل مفتقرا إلى العقل الأخلاقي بسبب افتقاره إلى التربية والسلوك الأخلاقي الذي يسمو به عن مراتب الحيوان الراغب في تحصيل اللذة والمتعة ولو على حساب غيره، فتتحول المعرفة هنا إلى وسيلة للعنف والقهر والفساد، وهو ما نراه في النموذج الغربي الحديث الذي وظف المعرفة في خدمة مصالحه الخاصة على حساب الشعوب، فصار كلما راكم نوعا جديدا من المعرفة استخدمه في قهر الإنسان، بسبب غياب البعد الأخلاقي في المعرفة.

بيد أن الناس تتفاوت في مراتب هذه العقول ما عدا النوع الثاني، أي العلم الضروري بجواز الجائزات واستحالة المستحيلات، أو ما أطلقنا عليه البديهيات أو المسلمات، لكن الاختلاف الأكبر بينهم يكون في النوع الرابع الأخلاقي، إذ يتفاوت الناس فيه، بل قد تتفاوت أحوال الشخص الواحد فيه، بحسب غلبة شهوته عليه، فالشاب مثلا قد لا يستطيع التغلب على شهوة الزنا، لكن إذا كبر وتم عقله صار أقدر على التغلب على تلك الشهوة، وشهوة الرياسة والرياء تزداد مع الكبر، كما أن العالم يكون أقدر على قهر شهوته من الجاهل.

ويبين الغزالي بحكمته أن هناك فرقا بين المعرفة والأخلاق، إذ ليس من الضروري أن تنتج المعرفة أخلاقا مساوية للقيمة المعرفية، فيرى أن العلم شيء ووجود المعلوم شيء آخر، وأن ليس كل من عرف النبوة والولاية كان نبيا أو وليا، ولا كل من عرف التقوى والورع كان تقيا ورعا، فالكمال الإنساني هو الجمع بين المعرفة والأخلاق، أي العلم الذي ينفع الإنسان في دنياه وآخرته.

النظافة

اعتنى الإسلام عناية فائقة بالنظافة، ووضع لها فرائض وتشريعات، لأنها من العوامل الأساسية في المحافظة على الصحة التي هي من أكبر نعم الله على الإنسان، كما صح في الحديث الذي رواه البخاري: "نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة، والفراغ". ففيما يتعلق بنظافة البدن شرع الإسلام الوضوء للصوات الخمس في اليوم والليلة، وفي صلاة الجمعة والعيدين، وفي الحديث الذي رواه البخاري ومسلم قال رسول الله ﷺ: "حق على كل مسلم أن يغتسل في كل سبعة أيام يوما، يغسل فيه رأسه وجسده"، وروى مسلم حديث: "إنَّ الله جميل يُحب الجمال"، وفي الحديث "النظافة من الإيمان".

وقد أولى الإمام الغزالي قضية النظافة اهتماما كبيرا، وذلك بناء على ما ورد في التشريع الإسلامي من حث على نظافة البدن والنفس. ولا شك أن الغزالي الذي كان يركز كثيرا على التربية والسلوك، كان لا بد أن ينظر إلى النظافة باعتبارها نظافة مادية ونظافة معنوية، بل إننا نراه يعتبر النظافة "في كل رتبة نصف العمل"، فكل عمل لا تسبقه نظافة السر والنية الصالحة وبغية وجه الله به فهو عمل ناقص.

وهكذا نراه يفتتح باب الطهارة الذي يسميه "كتاب أسرار الطهارة" من كتابه بتحميد جمع فيه كل معاني النظافة الظاهرة والباطنة: "الحمد لله الذي تلطف بعباده، فتعبدهم بالنظافة، وأفاض على قلوبهم تزكية لسرائرهم أنواره وألطافه، وأعد لظواهرهم تطهيرا لها الماء المخصوص بالرقة واللطافة، وصلى الله على النبي محمد المستغرق بنور الهدى أطراف العالم وأكنافه، وعلى آله الطيبين الطاهرين، صلاة تنجينا بركاتها يوم المخافة وتنتصب جنة بيننا وبين كل آفة".

في باب النظافة المذكور يبدأ الإمام الغزالي بالحديث عن أهمية النظافة والطهارة في الدين، فيقول: "فقد قال النبي ﷺ" بني الدين على النظافة"، وقال ﷺ "مفتاح الصلاة الطهور"، وقال الله تعالى: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ (التوبة ١٠٨)، وقال النبي ﷺ "الطهور نصف الإيمان"، وقال الله تَعَالَى ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ (المائدة ٦)، فتفطن ذوو البصائر بهذه الظواهر أن أهم الأمور تطهير السرائر، إذ يبعد أن يكون المراد بقوله ﷺ "الطهور نصف الإيمان" عمارة الظاهر بالتنظيف بإفاضة الماء وإلقائه، وتخريب الباطن وإبقائه مشحونا بالأخباث والأقذار، هيهات هيهات".

ثم يتحدث الغزالي عن مراتب ودرجات الطهارة، فيرى أن لها أربع مراتب، وهي:

المرتبة الأولى: تطهير الظاهر عن الأحداث وعن الأخباث والفضلات.

المرتبة الثانية: تطهير الجوارح عن الجرائم والآثام.

المرتبة الثالثة: تطهير القلب عن الأخلاق المذمومة والرذائل الممقوتة.

المرتبة الرابعة: تطهير السر عما سوى الله تعالى، وهي طهارة الأنبياء صلوات الله عليهم والصديقين.

وهذه المرتبة الرابعة هي الغاية القصوى المقصودة من الطهارة، أي تطهير السر وتخلية النفس مما سوى الله تعالى وإفراغ القلب من كل ما عداه.

وقد رأى الغزالي أن نظافة الباطن أولى من نظافة الظاهر، لأن نظافة الظاهر التي توجد على سطح الجسم يزيلها الماء بسهولة خلال مدة وجيزة من الزمن، أما نظافة الباطن فلا تزيلها إلى مجاهدة النفس ومدافعة الهوى. واستدل الغزالي بالحديث النبوي القائل "بني الدين على النظافة"، وقال: "وهو

كذلك باطنا وظاهرا، قال الله تعالى ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ (التوبة ٢٨)، تنبيها للعقول على الطهارة. والنجاسة غير مقصورة على الظواهر بالحس، فالمشرك قد يكون نظيف الثوب مغسول البدن، ولكنه نجس الجوهر، أي باطنه ملطخ بالخبائث. والنجاسة عبارة عما يجتنب ويطلب البعد منه، وخبائث صفات الباطن أهم بالاجتناب، فإنها مع خبثها في الحال مهلكات في المآل". ومن طراف الإمام الغزالي في حديثه عن النظافة، الظاهرة والباطنة، تفسيره للحديث الذي قال فيه النبي ﷺ "لَا تدخل الملائكة بيتا فيه كلب"، فنراه يشبه القلب بالبيت والخبائث بالكلب، لذلك فإن نور العلم والهدى لا يدخل إلى القلب المليء بالخبائث، كما أن الملائكة لا تدخل بيتا فيه كلب.

يقول الغزالي: "والقلب بيت، هو منزل الملائكة ومهبط أثرهم ومحل استقرارهم، والصفات الرديئة مثل الغضب والشهوة والحقد والحسد والكبر والعجب وأخواتها كلاب نابحة، فأنّى تدخله الملائكة وهو مشحون بالكلاب، ونور العلم لا يقذفه الله تعالى في القلب إلا بواسطة الملائكة، وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب، أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء. وهكذا ما يرسل من رحمة العلوم إلى القلوب إنما تتولاها الملائكة الموكلون بها، وهم المقدسون المطهرون المبرءون عن الصفات المذمومات، فلا يلاحظون إلا طيباً ولا يعمرون بما عندهم من خزائن رحمة الله إلا طيباً طاهراً".

ثم يزيد الغزالي موضحا كلامه: "ولست أقول المراد بلفظ البيت هو القلب، وبالكلب هو الغضب والصفات المذمومة، ولكني أقول هو تنبيه عليه، وفرق بين تعبير الظواهر إلى البواطن وبين التنبيه للبواطن من ذكر الظواهر مع تقرير الظواهر، ففارقَ الباطنية بهذه الدقيقة، فإن هذه طريق الاعتبار وهو مسلك العلماء والأبرار، إذ معنى الاعتبار أن يعبُر ما ذكر إلى غيره، فلا يقتصر عليه كما يرى العاقل مصيبة لغيره فيكون فيها له عبرة، بأن يعبُر منها إلى التنبه لكونه أيضاً عرضة للمصائب، وكون الدنيا بصدد الانقلاب، فعبوره

من غيره إلى نفسه ومن نفسه إلى أصل الدنيا عبرة محمودة، فاعبر أنت أيضاً من البيت الذي هو بناء الخلق إلى القلب الذي هو بيت من بناء الله تعالى، ومن الكلب الذي ذم لصفته لا لصورته، وهو ما فيه من سبُعية ونجاسة إلى الروح الكلبية وهي السبعية".

إن النظافة الروحية الباطنية شرط الوصول إلى التزكية عند الإمام الغزالي، فلا يمكن للسالك إلى طريق الحق أن يصل إلى مراده من دون النظافة الباطنية التي تخلص النفس من الهوى والحقد والحسد وسائر الأمراض الروحية، فالتخلية والتصفية شرط في التزكية، إذ لا بد أن يخلي الإنسان قلبه من الخبائث ويصفي روحه من كل سوء حتى يتحقق فيه معنى التزكية الحقيقية.

يقول الإمام الغزالي: "وإن أراد أن يكون من سالكي طريق الآخرة، وساعده التوفيق حتى اشتغل بالعمل ولازم التقوى ونهى النفس عن الهوى، واشتغل بالرياضة والمجاهدة، انفتحت له أبواب من الهداية تكشف عن حقائق هذه العقيدة بنور إلهي يقذف في قلبه بسبب المجاهدة، تحقيقاً لوعده عز وجل، إذ قال: والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين"، وهو الجوهر النفيس الذي هو غاية إيمان الصديقين والمقربين، وإليه الإشارة بالسر الذي وقر في صدر أبي بكر الصديق ﷺ حيث فضُل به الخلق".

إن طهارة القلب عن الغزالي هي الغاية القصوى التي يسعى إليها المسلم، فهو يقول "وأما عمل القلب فالغاية القصوى عمارته بالأخلاق المحمودة والعقائد المشروعة، ولن يتصف بها ما لم ينظف عن نقائضها من العقائد الفاسدة والرذائل الممقوتة، فتطهيره أحد الشطرين، وهو الشطر الأول الذي هو شرط في الثاني، فكان الطهور شطر الإيمان بهذا المعنى. وكذلك تطهير الجوارح عن المناهي أحد الشطرين، وهو الشطر الأول الذي هو شرط في الثاني، فتطهيره أحد الشطرين، وهو الشطر الأول وعمارتها بالطاعات الشطر

الثاني. فهذه مقامات الإيمان ولكل مقام طبقة، ولن ينال العبد الطبقة العالية إلا أن يجاوز الطبقة السافلة، فلا يصل إلى طهارة السر عن الصفات المذمومة وعمارته بالمحمودة ما لم يفرغ من طهارة القلب عن الخلق المذموم، وعمارته بالخلق المحمود، ولن يصل إلى ذلك من لم يفرغ عن طهارة الجوارح عن المناهي وعمارتها بالطاعات، وكلما عز المطلوب وشرف صعب مسلكه وطال طريقه وكثرت عقباته، فلا تظن أن هذا الأمر يدرك وينال بالهوينى".

ويتسع مفهوم النظافة عند الإمام الغزالي إلى أمور الكسب والمعيشة. فهو يشير إلى ضرورة أن يكون الطعام الذي يتناوله المرء طاهرا أيضا، وتتوفر فيه شروط النظافة، أي نظافة الوسيلة من كل شيء سيء يجعل الطعام حراما، بل يعتبر ذلك من أصول الدين.

إذ يقول في كتاب آداب الأكل إن الأصل في الطعام: "أن يكون بعد كونه حلالا في نفسه طيبا في جهة مكسبه موافقا للسنة والورع، لم يُكتسب بسبب مكروه في الشرع، ولا بحكم هوى ومداهنة في دين على ما سيأتي في معنى الطيب المطلق في كتاب الحلال والحرام. وقد أمر الله تعالى بأكل الطيب وهو الحلال، وقدم النهي عن الأكل بالباطل على القتل تفخيما لأمر الحرام، وتعظيما لبركة الحلال، فقال تعالى: " يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل" إلى قوله: "ولا تقتلوا أنفسكم" الآية، فالأصل في الطعام كونه طيبا وهو من الفرائض وأصول الدين".

وبعد أن يؤسس الغزالي الأرضية العقدية لمفهوم النظافة ينتقل إلى تبيان الجوانب الفقهية المتعلقة بها، كالطهارة من الخبث وقضاء الحاجة وكيفية الاستنجاء والوضوء والغسل وغيرها، مما لا يدخل في اهتمامنا في هذا الكتاب.

فلسفة الصلاة

للصلاة في الإسلام منزلة شريفة ومرتبة عليا، فهي الركن الثاني من أركان الإسلام بعد الشهادتين، لأن أول ما يفترض على الشخص الداخل في الإسلام بعد تأكيد إسلامه بالشهادتين هو الصلاة، إذ هي عماد الدين، وهي أول ما يحاسبُ اللهُ تعالى عليه المسلم مِن العبادات يوم القيامة. والصلاة أول ما طولب به الأنبياء، فقد جاء في القرآن الكريم على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧﴾ (إبراهيم ٣٧)؛ وقال تعالى عن موسى وهارون عليهما السلام: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّـَٔا لِقَوۡمِكُمَا بِمِصۡرَ بُيُوتٗا وَٱجۡعَلُواْ بُيُوتَكُمۡ قِبۡلَةٗ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٨٧﴾ (يونس ٨٧).

وقد خصص الإمام أبو حامد الغزالي بابا مستقلا للصلاة، سماه "كتاب أسرار الصلاة ومهماتها"، تعرض فيه لكل الجوانب التي تحف بفريضة الصلاة في الإسلام، وما ورد فيها من القرآن والحديث، وأحوال الصالحين في حالة صلاتهم، وغير ذلك من الأمور. وابتدأ هذا الباب بما يشير إلى أهمية الصلاة في الإسلام، وكيف أنها وسيلة للاتصال بالله سبحانه، بدون واسطة ولا حجاب، وكيف ربط الله تعالى بين الصلاة والدعاء، للترغيب فيها، ولتأكيد القرب منه سبحانه. قال الغزالي: "الحمد لله الذي غمر العباد بلطائفه، وعمر قلوبهم بأنوار الدين ووظائفه، التي تنزل عن عرش الجلال إلى السماء الدنيا من درجات الرحمة إحدى عواطفه، فارق الملوك مع التفرد بالجلال والكبرياء، بترغيب الخلق في السؤال والدعاء، فقال: "هل من داع فأستجيب له، وهل من مستغفر

فأغفر له؟"، وباين السلاطين بفتح الباب ورفع الحجاب، فرخص للعباد في المناجاة بالصلوات كيفما تقلبت بهم الحالات في الجماعات والخلوات، ولم يقتصر على الرخصة بل تلطف بالترغيب والدعوة وغيره من ضعفاء الملوك، لا يسمح بالخلوة إلا بعد تقديم الهدية والرشوة، فسبحانه ما أعظم شأنه وأقوى سلطانه، وأتم لطفه وأعم إحسانه، والصلاة على محمد نبيه المصطفى ووليه المجتبى وعلى آله وأصحابه مفاتيح الهدى ومصابيح الدجى، وسلم تسليما". إلى أين يقول بعد هذا الدعاء المليء بالمعاني :"أما بعد، فإن الصلاة عماد الدين وعصام اليقين، ورأس القربات وغرة الطاعات، وقد استقصينا في فن الفقه في بسيط المذهب ووسيطه ووجيزه أصولها وفروعها، صارفين جِمام العناية إلى تفاريعها النادرة ووقائعها الشاذة، لتكون خزانة للمفتي منها يستمد، ومُعوّلاً له إليها يفزع ويرجع".

ويتوسع الغزالي في معاني الصلاة، فهي ليست مجرد حركات أو أركان يقوم بها المسلم، بل هي عمل يستحضر فيه المصلي وجود الله سبحانه، وأنه في حضرته، كما ورد في الحديث الشريف:"اعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك".

يقول الإمام الغزالي في هذا المعنى مخاطبا المريد الصوفي الذي يريد أن يتعبد العبادة الصحيحة:" فالصلاة عندك قربة وتحفة تتقرب بها إلى حضرة ملك الملوك، كوصيفة يهديها طالب القربة من السلاطين إليهم، وهذه التحفة تعرض على الله عز وجلن ثم ترد عليك يوم العرض الأكبر، فإليك الخيرة في تحسين صورتها وتقبيحها، فإن أحسنت فلنفسك وإن أسأت فعليها".

ثم يقول منبها للمريد :"ولا ينبغي أن يكون حظك من ممارسة الفقه أن يتميز لك السنة عن الفرض، فلا يَعلق بفهمك من أوصاف السنة إلا أنه يجوز تركها، فتتركها، فإن ذلك يضاهي قول الطبيب إن فقء العين لا يبطل

وجود الإنسان، ولكن يخرجه عن أن يصدق رجاء التقرب في قبول السلطان إذا أخرجه في معرض الهدية. فهكذا ينبغي أن تفهم مراتب السنن والهيئات والآداب، فكل صلاة لم يتم الإنسان ركوعها وسجودها فهي الخصم الأول على صاحبها، تقول ضيعك الله كما ضيعتني.

الصلاة عند الإمام الغزالي لها فلسفة مخصوصة، فهي عمل موجه إلى الله سبحانه يتخلى فيه المصلي عن كل ما يربطه بالدنيا ليتصل بالخالق، فحين يستقبل القبلة فإن عليه أن يدير ظهره نهائيا للدنيا لبضع دقائق، يخلو فيها إلى مولاه. وهذا مقام رفيع من مقامات التدين، لذلك يحرص الغزالي على أن يتحلى المريد بهذه المواصفات حتى يكون مريدا كامل الإرادة.

يقول:" اعلم أن المؤمن لا بد أن يكون معظما لله عز وجل وخائفا منه، وراجيا له ومستحييا من تقصيره، فلا ينفك عن هذه الأحوال بعد إيمانه وإن كانت قوتها بقدر قوة يقينه، فانفكاكه عنها في الصلاة لا سبب له إلا تفرق الفكر وتقسيم الخاطر وغيبة القلب عن المناجاة، والغفلة عن الصلاة، ولا يلهي عن الصلاة إلا الخواطر الواردة الشاغلة، فالدواء في إحضار القلب هو دفع تلك الخواطر، ولا يُدفع الشيء إلا بدفع سببه، فلتعلم سببه وسبب موارد الخواطر، إما أن يكون أمرا خارجا أو أمرا في ذاته باطنا، أما الخارج فما يقرع السمع أو يظهر للبصر، فإن ذلك قد يختطف الهم حتى يتبعه ويتصرف فيه، ثم تنجر منه الفكرة إلى غيره ويتسلسل، ويكون الإبصار سببا للافتكار، ثم تصير بعض تلك الأفكار سببا للبعض، ومن قويت نيته وعلت همته لم يلهه ما جرى على حواسه، ولكن الضعيف لا بد وأن يتفرق به فكره، وعلاجه قطع هذه الأسباب بأن يغض بصره أو يصلي في بيت مظلم، أو لا يترك بين يديه ما يشغل حسه، ويقرب من حائط عند صلاته حتى لا تتسع مسافة بصره".

وقد خصص الغزالي بابا للأعمال الباطنة في الصلاة، سماه "الباب الثالث في الشروط الباطنة من أعمال القلب". فالصلاة عند الغزالي ليست عملا بالجوارح فقط، بل عمل بالقلب، ومن شروط هذا العمل الخشوع والتجرد. ويشرح ذلك في هذا الباب من كتابه شرحا مفصلا فيقول، متوجها بالحديث إلى المريد:" اعلم أن أدلة ذلك كثيرة ـ يقصد الخشوع في الصلاة ـ فمن ذلك قوله تعالى :"أقم الصلاة لذكري"، وظاهر الأمر الوجوب، والغفلة تضاد الذكر، فمن غفل في جميع صلاته كيف يكون مقيما للصلاة لذكره؟ وقوله تعالى:" ولا تكن من الغافلين" نهي، وظاهره التحريم. وقوله عز وجل:"حتى تعلموا ما تقولون" تعليل لنهي السكران، وهو مطرد في الغافل المستغرق الهم بالوسواس وأفكار الدنيا؛ وقوله ﷺ :"إنما الصلاة تمسكن وتواضع" حصرٌ بالألف واللام، وكلمة إنما للتحقيق والتوكيد، وقد فهم الفقهاء من قوله ﷺ :"إنما الشفعة فيما لم يقصر" الحصر والإثبات والنفي؛ وقوله ﷺ :"من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بعدا".

وهنا نجد الغزالي يميز بين موقف أهل الفقه وموقف أهل السلوك من الخضوع في الصلاة، فيرد على من قد ينتقده لاشتراطه الخشوع في صحة الصلاة، بتمييز الفقهاء عن أهل السلوك لأنهم لا يحكمون إلا على الظواهر، فقد تصح صلاة المسلم عند الفقهاء إذا جاء فيها بكل فرائضها وشروطها، لكنها لا تكون صحيحة في ذاتها لغفلة صاحبها عن الخشوع، فيقول:"فإن قلتَ: إن حكمت ببطلان الصلاة، وجعلت حضور القلب شرطاً في صحتها فقد خالفت إجماع الفقهاء، فإنهم لم يشترطوا إلا حضور القلب عند التكبير. فاعلم أنه قد تقدم في كتاب العلم أن الفقهاء لا يتصرفون في الباطن، ولا يشقون عن القلوب، ولا في طريق الآخرة، بل يبنون أحكام الدين على ظاهر أعمال الجوارح، وظاهر الأعمال كاف لسقوط القتل وتعزير السلطان، فأما أنه ينفع في الآخرة فليس هذا من حدود الفقه".

آداب الطعام

وضع الإسلام لكل شيء قواعد وآدابا، حتى إنه لم يترك شيئا في الحياة المدنية للإنسان إلا وتكلم فيها، ومن جملة ذلك الأكل والطعام. فقد حدد الإسلام آدابا للمائدة، وهي آداب لم تعرفها أوروبا المتحضرة إلا في القرون المتأخرة. ومن تلك الآداب التي شرعتها السنة النبوية التسمية قبل الأكل، أي قول "بسم الله"، وذلك للحديث الذي روته عائشة رضي الله عنها، أن رسول الله ﷺ قال: "إِذَا أَكَلَ أَحَدُكُمْ فَلْيَذْكُرْ اسْمَ اللهِ تَعَالَى، فَإِنْ نَسِيَ أَنْ يَذْكُرَ اسْمَ اللهِ تَعَالَى فِي أَوَّلِهِ فَلْيَقُلْ: بِسْمِ اللهِ أَوَّلَهُ وَآخِرَهُ". ومن تلك الآداب أيضا الأكل باليمين، والأكل من الجهة التي تلي الشخص الذي يتناول الطعام، وذلك لقول النبي ﷺ لعمر بن أبي سلمة عندما كان غلاما: "يَا غُلَامُ : سَمِّ اللهَ ، وَكُلْ بِيَمِينِك، وَكُلُّ مِمَّا يَلِيك".

وقد خصص الغزالي بابا لآداب الأكل والطعام، وأدرجه في العادات، قال في أوله: "الحمد لله الذي أحسن تدبير الكائنات، فخلق الأرض والسماوات، وأنزل الماء الفرات من المعصرات، فأخرج به الحب والنبات، وقدر الأرزاق والأقوات، وحفظ بالمأكولات قوى الحيوانات، وأعان على الطاعات والأعمال الصالحات بأكل الطيبات".

والغزالي لا يعتبر الأكل والطعام وسيلة لاستمرار الحياة فحسب، بالنسبة للشخص الآدمي، بل يعتبرهما وسيلة للمساعدة على العبادة والنهوض بالواجبات، لأنه ينطلق من الآية الكريمة التي تقول: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات:٥٦]، لذلك نجده يقول: " فإن مقصد ذوي الألباب لقاء الله تعالى في دار الثواب، ولا طريق إلى الوصول للقاء الله إلى بالعلم والعمل، ولا تمكن المواظبة عليهما إلا بسلامة البدن، ولا تصفو سلامة البدن

إلا بالأطعمة والأقوات والتناول منها بقدر الحاجة على تكرر الأوقات، فَمِنْ هَذَا الوجه قال بعض السلف الصالحين "إن الأكل من الدين"، وعليه نبه رب العالمين بقوله وهو أصدق القائلين "كلوا من الطيبات واعملوا صالحا". فمن يُقدم على الأكل ليستعين به على العلم والعمل ويقوي به على التقوى، فلا ينبغي أن يترك نفسه مهملاً سدى، يسترسل في الأكل استرسال البهائم في المرعى، فإن ما هو ذريعة إلى الدين ووسيلة إليه ينبغي أن تظهر أنوار الدين عليه، وإنما أنوار الدين آدابه وسننه التي يُزمّ العبد بزمامها، ويُلجم المتقي بلجامها، حتى يزن بميزان الشرع شهوة الطعام في إقدامها وإحجامها، فيصير بسببها مَدفعة للوزر، ومَجلبة للأجر، وإن كان فيها أوفى حظ للنفس".

قسم الغزالي آداب الأكل وأعرافه إلى ثلاثة أقسام، قسم قبل الأكل، وقسم مع الأكل، وقسم بعد الفراغ منه.

فالْأَوَّلُ أن يكون الطعام من الحلال لا من الحرام، وأن يكون قد كسبه العبد بوسيلة مشروعة موافقة للسنة، وأن يكون طعاما طيبا من جهة مكسبه موافقا للسنة والورع، لم يُكتسب بسبب مكروه في الشرع، ولا بحكم هوى ومداهنة في دين.

والشرط الثاني من آداب وشروط الأكل فهو غسل اليدين، وهنا يرى أن الطعام يستعين به المسلم على أداء العبادات في صحة جيدة، لأن بقاء النفس ببقاء الجسد، وبقاء الجسد لا يكون إلا بالطعام والشراب وما يقيمه لينهض بمهماته. ولأن الطعام وسيلة إلى العبادة فهو أيضا عبادة، لأن ما لا يقوم الواجب إلا به فهو واجب، يقول الغزالي: "الأكل لقصد الاستعانة على الدين عبادة، فهو جدير بأن يقدم عليه ما يجري منه مجرى الطهارة من الصلاة"، فهو هنا يقارن الغسل من أجل الأكل بالوضوء من أجل الصلاة.

أما الشرط الثالث من آداب الطعام والأكل فهو أن يوضع الطعام على السفرة،

وهي المائدة، وذلك امتثالا لما كان يفعله النبي ﷺ. يقول الغزالي: "والثالث أن يوضع الطعام على السفرة الموضوعة على الأرض، فهو أقرب إلى ما فَعَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ من رفعه على المائدة. كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إذا أُتي بطعام وضعه على الأرض، لحديث أنس ما أكل رسول الله ﷺ على خوّان وَلا في سُكُرُّجة"، والسكرجة هي الإناء أو الوعاء.

وهنا نجد الغزالي، بذكائه وفطنته، يرد بطريقة ضمنية على من يقولون باتباع النبي ﷺ في كل شيء من العادات التي لا تدخل في العبادات، فهو يقول: "وما يقال إنه أُبدع بَعْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فليس كُلُّ مَا أُبْدِعَ مَنْهِيًّا، بَلِ الْمَنْهِيُّ بِدْعَةٌ تُضَادُّ سُنَّةً ثَابِتَةً، وَتَرْفَعُ أَمْرًا مِنَ الشَّرْعِ مع بقاء علته، بل الإبداع قد يجب في بعض الأحوال إذا تغيرت الأسباب، وَلَيْسَ فِي الْمَائِدَةِ إِلَّا رَفْعُ الطَّعَامِ عَنِ الأرض لتيسير الأكل، وأمثال ذلك مما لا كراهة فيه".

إنه هنا يبين بأن رفع المائدة عن الأرض، خلافا لما كان يقوم به النبي ﷺ، ليس بدعة في الدين، لأن المائدة ليست من الدين، ودورها ليس سوى رفع الطعام عن الأرض لتيسير الأكل، فكل ما ييسر على الإنسان أموره فهي من الدين.

ولكن أبا حامد لا ينظر إلى الأكل والطعام فقط نظرة دينية، أي نظرة الزاهد الصوفي، الذي يعتبر الطعام مجرد وسيلة تعين المسلم على القيام بالواجبات الدينية من عبادات وأعمال البر، بل إنه ينظر إلى الطعام أيضا من منظور طبي، أي من زاوية ترتبط بالحفاظ على الصحة، منطلقا من الحديث النبوي الشريف الذي يقول فيه النبي ﷺ: "ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه".

لذلك نرى الغزالي يشترط شرطين أساسيين، الأول أن لا يمد الإنسان يده إلى الطعام إلا إذا أحس بالجوع، لا أن يأكل في كل لحظة وبدون مناسبة طيلة اليوم والليلة. يقول: "ومن ضرورة هذه النية أن لا يمد اليد إلى الطعام إلا وهو جائع فيكون الجوع أحد ما لا بد من تقديمه على الأكل".

أما الشرط الثاني فهو أن يرفع المرء يده عن الطعام قبل أن يشعر بالشبع، بحيث لا يتسبب الأكل في التخمة. يقول أبو حامد:" ثم ينبغي أن يرفع اليد قبل الشبع، ومن فعل ذلك استغنى عن الطبيب".

فهذان الشرطان بالنسبة لأبي حامد كافيان للحفاظ على الصحة والعافية بالنسبة للإنسان، فكأنه كان يتحدث قبل قرون عن السمنة وسلبيات الإفراط في الأكل التي انتشرت في هذا العصر، حتى أصبحت تتسبب في الكثير من الأمراض.

وفي علاقة بالشبع والإفراط في الأكل ينصح الغزالي بكسر الشهوة إلى الأكل دون حاجة، واعتبر ذلك من المهلكات، لذلك خصص بابا في كتابه سماه"كتاب كسر الشهوتين وهو الكتاب الثالث من ربع المهلكات".

وقد بدأ هذا الباب بالإشارة إلى أكل آدم وحواء عليهما السلام من الشجرة، مما تسبب في خروجهما من الجنة، فسبب هذا الخروج هو شهوة الأكل. يقول الغزالي:"فأعظم المهلكات لابن آدم شهوة البطن، فبها أُخرج آدم ﷺ وحواء من دار القرار إلى دار الذل والافتقار، إذ نهيا عن الشجرة فغلبتهما شهواتهما، حتى أكلا منها فبدت لهما سوآتهما. والبطن على التحقيق ينبوع الشهوات، ومنبت الأدواء والآفات".

ثم يتحدث عن فضية الجوع وذم الشبع، معتمدا على أحاديث نبوية كثيرة، منها قوله ﷺ:"أفضلكم عند الله منزلة يوم القيامة أطولكم جوعاً وتفكراً في الله سبحانه، وأبغضكم عند الله عز وجل يوم القيامة كل نُؤم أكول شروب"، والنؤم الذي ينام كثيرا.

ويذكر الغزالي للجوع عشر فوائد، منها صفاء القلب وخفة البدن، والتذكير بعذاب الله وبلائه، وكسر شهوات المعاصي والسيطرة على النفس، وتيسير المواظبة على العبادة، وصحة البدن ودفع الأمراض، لأن كثرة الأكل تنتج الأخلاط في المعدة، والمعدة بيت الداء، وكذلك قلة المؤونة، لأن من يأكل كثيرا ينفق الكثير من المال.

الصحبة والأخوة

يعرف اللغويون العرب الصحبة بأنها التقاء في زمان واحد وفي مكان واحد، دون أن تعني بالضرورة التجانس والانسجام بين المتصاحبين. وقد وردت الصحبة في القرآن أكثر من مائة مرة، تارة بمعنى الصاحب وتارة بمعنى الرفيق، وأخرى بمعنى الصديق أو مشتقاته، مثل قوله تعالى: ﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى﴾ (الكهف ٧٦)، وقوله: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ (لقمان ١٥)، وقوله: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾ (النساء ٦٩).

أما الأخوة أو الإخاء، فهي رابطة متينة تجمع بين طرفين أو أكثر، وتتصف بالدوام، وتنشأ بسبب النسب أو الرضاع أو الدين أو الاشتراك في القبيلة والوطن. وقد ورد في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الحُجُرات:١٠].

لقد أفرد الإمام أبو حامد الغزالي في كتابه الذي بين أيدينا، بابا كاملا للصحبة والأخوة والمعاشرة، سماه: "كِتَابُ آداب الألفة والأخوة والصحبة والمعاشرة مع أصناف الخلق"، وجعله الكتاب الخامس من محور "ربع العبادات". وكما هي عادة الغزالي في كتابه، حيث يبدأ كل باب بدعاء خاص بتلك الفضيلة أو الخصلة التي سيتحدث عنها، يبدأ هذا الباب أيضا بدعاء مخصوص يقول في مستهله: "الحمد لله الذي غمر صفوة عباده بلطائف التخصيص طولاً وامتناناً، وألف بين قلوبهم فأصبحوا بنعمته إخواناً، ونزع الغل من صدورهم فظلوا في الدنيا أصدقاء وأخداناً، وفي الآخرة رفقاء وخلاناً".

إن الغـزالي يـرى أن الأخـوة الحقيقيـة تتجـاوز رابطـة الـدم أو الـتراب، بـل الأخوة الحقيقيـة عنـده هـي تلـك التـي تكـون في الديـن، وذلـك لأن أخـوة الدنيـا قـد تتعـرض للطـوارئ التـي تقـضي عليهـا، بسـبب تقلبـات الدنيـا، بينـما أخـوة الديـن تظـل ثابتـة، بثبـات الديـن. يقـول الغزالي: "فـإن التحـاب في الله تعـالى والأخـوة في دينـه مـن أفضـل القربـات، وألطـف مـا يسـتفاد مـن الطاعـات في مجـاري العـادات، ولهـا شروط بهـا يلتحـق المتصاحبـون بالمتحابـين في الله تعـالى، وفيهـا حقـوق بمراعاتهـا تصفـو الأخـوة عـن شـوائب الكـدورات، ونزغـات الشـيطان، فبالقيـام بحقوقهـا يتقـرب إلى الله زلفـى، وبالمحافظـة عليهـا تنـال الدرجـات العـلى".

إن الغـزالي البـارع في فقـه النفـوس، يـرى أن الطبـاع النفسـية تلعـب دورا كبـيرا في تقويـة الصحبـة وتحقيـق التقـارب بـين المتصاحبـين، فالطبـع الجيـدة تدفـع إلى الألفـة والمحبـة، والطبـاع السـيئة تقـوي التحاسـد والتباغـض. يقول: "اعلـم أن الألفـة ثمـرة حسـن الخلـق، والتفـرق ثمـرة سـوء الخلـق، فحسـن الخلـق يوجـب التحـاب والتآلـف والتوافـق، وسـوء الخلـق يثمـر التباغـض والتحاسـد والتدابـر، ومهـما كان المثمـر محمـودا كانـت الثمـرة محمـودة. وحسـن الخلـق لا تخفـى في الديـن فضيلتـه، وهـو الـذي مـدح الله سـبحانه بـه نبيـه ﷺ إذ قـال "وإنـك لعـلى خلـق عظيـم"، وقـال النبـي ﷺ :أكثـر مـا يدخـل النـاس الجنـة تقـوى الله وحسـن الخلـق".

ويوضـح أبـو حامـد مقاصـده مـن كلامـه فيضيـف: " ولا يخفـي أن ثمـرة الخلـق الحسـن الألفـة وانقطـاع الوحشـة، ومهـما طـاب المثمـر طابـت الثمـرة، وكيـف وقـد ورد في الثنـاء عـلى نفـس الألفـة، سـيّما إذا كانـت الرابطـة هـي التقـوى و الديـن وحـب الله، مـن الآيـات والأخبـار والآثـار مـا فيـه كفايـة ومقنـع، قـال الله تعـالى مظهـرا عظيـم منتـه عـلى الخلـق بنعمـة الألفـة: ﴿أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ [الأنفـال:٦٣]، وقـال: ﴿فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾[آل عمـران:١٠٣] أي بالألفـة، ثـم ذم التفرقـة وزجـر عنهـا فقـال عـز مـن قائـل: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾[آل عمـران:١٠٣].

ومن عجيب إبداعات الغزالي في الحديث عن الصحبة والأخوة ربط ذلك بالقرآن الكريم، إذ هو يبني على ما ورد في القرآن من الآيات لكي يستخلص النتائج، حيث يرى أن الصحبة المبنية على أسس واهية، والتي ليس فيه تبادل النصح وعمل الخير، هي صحبة لا فائدة منها، بل قد تجر على الإنسان الكثير من المتاعب النفسية، وتؤدي به إلى الوقوع في البدع الدينية. فقد استند مثلا إلى قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ (الكهف ٢٨)، وقوله تعالى: ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ (طه ١٦)، وقوله: ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ (لقمان ١٥)، وغير ذلك من الآيات، لكي يؤكد على عدم صحبة المبتدع والفاسق. فهو يقول: "وأما المبتدع ففي صحبته خطرُ سرايةِ البدعة، وتعدي شؤمها إليه. فالمبتدع مستحق للهجر والمقاطعة، فكيف تُؤثَر صحبته؟ وقد قال عمر ﷺ في الحث على طلب التدين في الصديق فيما رواه سعيد بن المسيب، قال: "عليك بإخوان الصدق تعش في أكنافهم، فإنهم زينة في الرخاء وعدة في البلاء، وضع أمر أخيك على أحسنه، حتى يجيئك ما يغلبك منه، واعتزل عدوك واحذر صديقك إلا الأمين من القوم، ولا أمين إلا من خشي الله، فلا تصحب الفاجر فتتعلم من فجوره، ولا تطعه على سرك، واستشر في أمرك الذين يخشون الله تعالى".

والغزالي ينطلق في التمييز بين الصحبة الجيدة والصحبة الرديئة، من أهمية الاجتماع البشري، إذ يرى أن الإنسان اجتماعي بطبعه، ولا يستطيع أن يعيش بمفرده بعيدا عن بني جنسه. وإذا كان لا بد من الاجتماع والمعاشرة والمخالطة، فلا بد أيضا من الاختيار والتمييز. فهو يقول: "اعلم أن الإنسان إما أن يكون وحده أو مع غيره، وإذا تعذر عيش الإنسان إلا بمخالطة مَنْ هُوَ مِنْ جِنْسِه، لَمْ يَكُنْ لَهُ بُدٌّ مِنْ تَعَلُّمِ آدَابِ المُخَالَطَة".

وتقوم آداب المخالطة عند الغزالي على الحقوق والواجبات، يقول: "والرابطة إما القرابة وهي أخصها، أو أخوة الإسلام وهي أعمها، وينطوي في معنى

الأخوة الصداقة والصحبة، وإما الجوار، وإما صحبة السفر و المكتب والدرس، وإما الصداقة أو الأخوة، ولكل واحد من هذه الروابط درجات، فالقرابة لها حق ولكن حق الرحم المحرم آكد، وللمحرم حق، ولكن حق الوالدين آكد، وكذلك حق الجار، ولكن يختلف بحسب قربه من الدار وبعده، ويظهر التفاوت عند النسبة، حتى أن البلدي في بلاد الغربة يجري مجرى القريب في الوطن، لاختصاصه بحق الجوار في البلد، وكذلك حق المسلم يتأكد بتأكد المعرفة، وكذلك المعارف، فهي درجات، فليس حق الذي عُرف بالمشاهدة كحق الذي عرف بالسماع، بل آكد منه، والمعرفة بعد وقوعها تتأكد بالاختلاط، وكذلك الصحبة تتفاوت درجاتها، فحق الصحبة في الدرس والمكتب آكد من حق صحبة السفر".

والأمر نفسه في تفسير الغزالي للصداقة، فهي أيضا تتفاوت مراتبها ودرجاتها، مثل الصحبة والأخوة والرفقة، إذ يرى أن مراتب الصداقة تتفاوت بتفاوت طبيعة العلاقة بين الأشخاص: "فإنها إذا قويت صارت أخوة، فإن ازدادت صارت محبة، فإن ازدادت صارت خُلة، والخليل أقرب من الحبيب. فالمحبة ما تتمكن من حبة القلب، والخلة ما تتخلل سر القلب، فكل خليل حبيب وليس كل حبيب خليلاً. وتفاوُت درجات الصداقة لا يخفى بحكم المشاهدة والتجربة، فأما كون الخلة فوق الأخوة، فمعناه أن لفظ الخلة عبارة عن حالة، هي أتم من الأخوة، وتعرفه من قوله ﷺ "لو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن صاحبكم خليل الله".

والغزالي يرى أن أعلى مراتب الصحبة والأخوة والصداقة هي التي كانت بين النبي ﷺ وأبي بكر الصديق رضي الله عنه، لأنها وصلت إلى درجة الإيثار والتضحية بالنفس، يقول: "وإنما تتفاوت الرتب في تلك الحقوق كما سبق، بحسب تفاوت المحبة والأخوة، حتى ينتهي أقصاها إلى أن يوجب الإيثار بالنفس والمال، كما آثر أبو بكر رضي الله عنه نبينا ﷺ، وكما آثره طلحة ببدنه، إذ جعل نفسه وقاية لشخصه العزيز ﷺ".

ويشترط الغزالي للصحبة والأخوة حقوقا معينة، لأن الصحبة النافعة هي التي تقوم على النصيحة والإرشاد والتوصية بالخير والبر، فهو يرى أن الصحبة "تقتضي حقوقاً كثيرة في أحوال متقاربة مترادفة على الدوام، والجوار لا يقتضي إلا حقوقاً قريبة في أوقات متباعدة لا تدوم".

من هذه الحقوق يذكر الغزالي التعليم والنصيحة، والتعليم يعني به تبادل العلم والتلقين وعدم البخل بالمعرفة، لأن حاجة الصاحب والصديق إلى العلم هي مثل حاجته إلى المال، يقول:" ومن ذلك التعليم والنصيحة، فليس حاجة أخيك إلى العلم بأقل من حاجته إلى المال، فإن كنت غنيا بالعلم فعليك مواساته من فضلك وإرشاده إلى كل ما ينفعه في الدين والدنيا، فإن علمته وأرشدته ولم يعمل بمقتضى العلم فعليك النصيحة، وذلك بأن تذكر آفات ذلك الفعل وفوائد تركه وتخوفه بما يكرهه في الدنيا والآخرة لينزجر عنه، وتنبهه على عيوبه وتقبح القبيح في عينه وتحسن الحسن، ولكن ينبغي أن يكون ذلك في سر لا يطلع عليه أحد، فما كان على الملأ فهو توبيخ وفضيحة، وما كان في السر فهو شفقة ونصيحة، إذ قال ﷺ :"المؤمن مرآة المؤمن".

حقوق اللسان

عرف العرب قديما آفات اللسان ومطبات الكلام، فقالوا في أمثالهم: "الكلام كالدواء؛ إن أقللت منه نفع، وإن أكثرت منه قتل"، وقالوا أيضا "الصمت حكمة". وقال الشاعر الجاهلي زهير بن أبي سلمى:

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده فلم يبق إلا صورة اللحم والدم.

وقد أولى الإسلام اللسان والكلام أهمية فائقة، نظرا لما يجره الكلام على المرء من آفات ومطبات، فنهى عن الغيبة والنميمة، وكلاهما من آفات اللسان، وقد قال النبي ﷺ: "الكلمة الطيبة صدقة"، وقال أيضا: "إنّ العبد ليتكلم بالكلمة لا يرى بها بأسًا، يهوي بها في النار سبعين خريفًا"، أي سبعين سنة كما يقول المفسرون، وفي الحديث الشهير: "الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ".

اعتبارا لاهتمام أبي حامد الغزالي بالتربية والسلوك، والحرص على التعليم الأخلاقي للفرد والجماعة، فقد أفرد لهذا الموضوع بابا سماه "كتاب آفات اللسان وهو الكتاب الرابع من ربع المهلكات من كتاب إحياء علوم الدين"، بدأه بحمد الله على النعم التي أودعها في اللسان، فهو مخرج البيان ووسيلة الشكر وترجمان العقل والقلب والكاشف عما في صدر الإنسان والناطق بالحق أو بالباطل، فقال: "الحمد لله الذي أحسن خلق الإنسان وعدله، وألهمه نور الإيمان فزينه به، وجمله وعلمه البيان، فقدمه به وفضله، وأفاض على قلبه خزائن العلوم فأكمله، ثم أرسل عليه ستراً من رحمته وأسبله، ثم أمده بلسان يترجم به عما حواه القلب وعقله، ويكشف عنه ستره الذي أرسله، وأطلق بالحق مقوله، وأفصح بالشكر عما أولاه وخوّله من علم حصله، ونُطق سهله".

ثم بعد ذلك عد اللسان من نعم الله العظيمة، إذ رغم صغره فإن خطره عظيم، فالشهادة والنطق بالإيمان لا تكون إلا باللسان، كما أن اللسان هو الوسيلة التي يخرج بها العلم من الصدور، وهو جسر العلوم.

يقول الغزالي: "فإن اللسان من نعم الله العظيمة، ولطائف صنعه الغريبة، فإنه صغير جِرمه عظيم طاعته وجُرمه، إذ لا يستبين الكفر والإيمان إلا بشهادة اللسان، وهما غاية الطاعة والعصيان. ثم إنه ما من موجود أو معدوم خالق أو مخلوق، متخيل أو معلوم، مظنون أو موهوم، إلا واللسان يتناوله ويتعرض له بإثبات أو نفي، فإن كل ما يتناوله العلم يعرب عنه اللسان، إما بحق أو باطل، ولا شيء إلا والعلم متناول له".

يرى الغزالي أن اللسان له خاصية تميزه عن جميع الأعضاء في الجسم، فهو مدخل الخير والشر، وباب الشيطان، والكلمة إذا خرجت منه لا تعود أبدا. يقول: "وهذه خاصية لا توجد في سائر الأعضاء، فإن العين لا تصل إلى غير الألوان والصور، والآذان لا تصل إلى غير الأصوات، واليد لا تصل إلى غير الأجسام، وكذا سائر الأعضاء. واللسان رحب الميدان، ليس له مرد، ولا لمجاله منتهى وحد، له في الخير مجال رحب، وله في الشر ذيل سحْب، فمن أطلق عذبة اللسان وأهمله مرخي العنان، سلك به الشيطان في كل ميدان، وساقه إلى شفا جرف هار، إلى أن يضطره إلى البوار، ولا يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ إِلَّا حصائد ألسنتهم، ولا ينجو من شر اللسان إلا من قيده بلجام الشرع، فلا يطلقه إلا فيما ينفعه في الدنيا والآخرة، ويكفه عن كل ما يخشى غائلته في عاجله وآجله".

ويعتبر الغزالي أن خطورة اللسان تعود إلى خفته في الفم، وسهولة تحريكه من طرف الشخص، لأنه ليس ثقيلا، ولا يكلف صاحبه جهدا كبيرا في استخدامه، وهذا يجعل الكثير من الناس لا تعيره اهتماما، وتطلقه في كل اتجاه، لذلك فإن الغزالي يسميه "أعظم آلة للشيطان في استغواء الإنسان".

إن أبا حامد يرى أن كل عضو من أعضاء جسم الإنسان له وظيفة معينة خلق لأجلها، وكل تحريف لوظيفته الأصلية إلى وظيفة أخرى يخرج بالإنسان عن طريق الاستقامة. ولكن أخطر هذه الأعضاء هو اللسان، لأنه مطبوع على الانطلاق والحركة والكلام، ولا جهد فيه ولا يكلف صاحبه مشقة، ولكن مع خفته وسهولته فإن جنايته عظيمة. فاللسان عند الغزالي لم يخلق للنميمة والغيبة والكذب والسخرية والاستهزاء والذم واللعن، بل خلق للذكر والتذكير والتعلم والتعليم وإرشاد العباد إلى الصراط المستقيم، وإصلاح ذات البين والخصومات بين الناس، وفعل الخيرات، لذلك قال إن الإنسان يجب أن يشترط على نفسه أن لا يحرك لسانه طول النهار "إلا في الذكر، فنطق المؤمن ذكر، ونظره عبرة، وصمته فكرة".

ويذكر الغزالي عددا من آفات اللسان، وطرق تجنبها والاحتراز منها، ومن هذه الآفات آفة الكلام فيما لا يعني، وآفة فضول الكلام، وآفة الخوض في الباطل، وآفة المراء والجدال، وآفة الخصومة، وآفة التقعر في الكلام بالتشدق وتكلف السجع والفصاحة والتصنع فيه، وآفة الفحش والسب وبذاءة اللسان، و"آفة اللعن إما لحيوان أو جماد أو إنسان، ثم آفة الغناء بالشعر، وقد ذكرنا في كتاب السماع ما يحرم من الغناء وما يحل فلا نعيده، ثم آفة المزاح، ثم آفة السخرية والاستهزاء، ثم آفة إفشاء السر، ثم آفة الوعد الكاذب، ثم آفة الكذب في القول واليمين، ثم بيان التعاريض في الكذب، ثم آفة الغيبة، ثم آفة النميمة، ثم آفة ذي اللسانين الذي يتردد بين المتعاديين فيكلم كل واحد بكلام يوافقه، ثم آفة المدح، ثم آفة الغفلة عن دقائق الخطأ في فحوى الكلام، لا سيما فيما يتعلق بالله وصفاته ويرتبط بأصول الدين، ثم آفة سؤال العوام عن صفات الله عز وجل وعن الحروف أهي قديمة أو محدثة، وهي آخر الآفات، وما يتعلق بذلك، وجملتها عشرون آفة".

ولقد وضع الغزالي في كتابه فصلا سماه "بيان عظيم خطر اللسان وفضيلة الصمت"، تطرق فيه إلى أهمية الصمت في حياة الإنسان، وعلاقتها بالسلامة من الآثام، وإثارة الخلاف مع الناس، وذلك نظرا لخطورة اللسان، فقال: "اعلم أن خطر اللسان عظيم، وَلَا نَجَاةَ من خطره إلا بالصمت، فلذلك مدح الشرع الصمت وحث عليه، فقال ﷺ: "من صمت نجا". وقال ﷺ: " الصمت حكم وقليل فاعله"، بلفظ حِكم بدل حكمة.

ثم يقترح الغزالي علاج آفة اللسان والكلام، فيراه في تذكر الموت، وتذكر الحساب على كل كلمة يتفوه بها المرء في الدنيا. قال الغزالي: "وعلاج ذلك كله أن يعلم أن الموت بين يديه، وأنه مسؤول عن كل كلمة، وأن أنفاسه رأس ماله، وَأَنَّ لِسَانَهُ شَبَكَةٌ يَقْدِرُ أن يقتنص بها الحور العين، فإهماله ذلك وتضييعه خسران مبين، هذا علاجه من حيث العلم. وأما من حيث العمل فالعزلة، أو أن يضع حصاة في فيه، وأن يلزم نفسه السكوت بها عن بعض ما يعنيه، حتى يعتاد اللسان ترك ما لا يعنيه، وضبط اللسان في هذا على غير المعتزل شديد جداً".

ويستدل الغزالي بعدد من الأحاديث النبوية في أهمية الصمت، وأهمية حفظ اللسان، منها قوله ﷺ: "اخْزُنْ لِسَانَكَ إِلَّا مِنْ خَيْرٍ، فَإِنَّكَ بِذَلِكَ تغلب الشيطان"، وقوله الله ﷺ: " الناس ثلاثة، غانم وسالم وشاحب، فالغانم الذي يذكر الله تعالى، والسالم الساكت، والشاحب الذي يخوض في الباطل".

يرتبط بالصمت عند الغزالي فضول الكلام، وهو الكلام الزائد الذي لا حاجة إليه، ويعتبره من الآفات، ويدخل في آفات الكلام "الخوض فيما لا يعني، والزيادة فيما يعني على قدر الحاجة، فإن من يعنيه أمر يمكنه أن يذكره بكلام مختصر، ويمكنه أن يجسمه ويقرره ويكرره، ومهما تأدى مقصوده بكلمة واحدة فذكر كلمتين فالثانية فضول، أي فضل عن الحاجة، وهو أيضا مذموم

لما سبق وإن لم يكن فيه إثم ولا ضرر، قال عطاء بن أبي رباح: "إن من كان قبلكم كانوا يكرهون فضول الكلام".

ثم يقول: " واعلم أن فضول الكلام لا ينحصر، بل المهم محصور في كتاب الله تعالى، قال الله عز وجل: ﴿۞ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ [النساء:١١٤]، وقال ﷺ: "طوبى لمن أمسك الفضل من لسانه وأنفق الفضل من ماله".

ويذكر الغزالي أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه كان يضع حصاة في فمه ليمنع بها نفسه عن الكلام، وكان يشير إلى لسانه ويقول: "هذا الذي أوردني الموارد". وقال عبد الله بن مسعود: "والله الذي لا إله إلا هو، ما شيء أحوج إلى طول سجن من لسان"، وقال طاوس: "لساني سبع إن أرسلته أكلني". وقال وهب بن منبه في حكمة آل داود : "حق على العاقل أن يكون عارفاً بزمانه، حافظاً للسانه، مقبلاً على شأنه". وقال الحسن البصري : "ما عقل دينَه من لم يحفظ لسانه". وقال الأوزاعي: كتب إلينا عمر بن عبد العزيز رحمه الله: "أما بعد فإن من أكثر ذكر الموت رضي من الدنيا باليسير، ومن عد كلامه من عمله قل كلامه، إلا فيما يعنيه". وقال بعضهم: "الصمت يجمع للرجل فضيلتين، السلامة في دينه والفهم عن صاحبه". وقال محمد بن واسع لمالك بن دينار: " يا أبا يحيى، حفظ اللسان أشد على الناس من حفظ الدينار والدرهم". وقال يونس بن عبيد: "ما من الناس أحد يكون منه لسانه على بال، إلا رأيت صلاح ذلك في سائر عمله".

والكلام عن الغزالي أربعة أقسام: قسم هو ضرر محض، وقسم هو نفع محض، وقسم فيه ضرر ومنفعة، وقسم لا ضرر فيه ولا منفعة، والأخيران يدخلان في فضول الكلام.

وإذا كان الكلام "وسيلة إلى المقاصد" كما يرى أبو حامد، فإن الكذب "ليس حراما بعينه" بل لما يؤديه من المقاصد، فإذا كانت مقاصد الكذب

شريفة كان الكذب جائزا، وإذا كانت المقاصد خسيسة كان الكذب حراما "فكل مقصود محمود يمكن التوصل إليه بالصدق والكذب جميعا، فالكذب فيه حرام، وإن أمكن التوصل إليه بالكذب دون الصدق فالكذب فيه مباح إن كان تحصيل ذلك القصد مباحا، وواجب إن كان المقصود واجبا، كما أن عصمة دم المسلم واجبة، فمهما كان في الصدق سفك دم امرئ مسلم قد اختفى من ظالم فالكذب فيه واجب، ومهما كان لا يتم مقصود الحرب أو إصلاح ذات البين أن استمالة قلب المجني عليه إلا بكذب فالكذب مباح، إلا أنه ينبغي أن يحترز منه ما أمكن، لأنه إذا فتح باب الكذب على نفسه فيخشى أن يتداعى إلى ما يستغني عنه، وإلى ما لا يقتصر على حد الضرورة، فيكون الكذب حراما في الأصل إلا لضرورة"؛ ويستدل الغزالي في هذا الباب بما روي عن أم كلثوم رضي الله عنها: "ما سمعت رسول الله ﷺ يرخص في شيء من الكذب إلا في ثلاث: الرجل يقول القول يريد به الإصلاح، والرجل يقول القول في الحرب، والرجل يحدث امرأته والمرأة تحدث زوجها"، وقالت أيضا: "قال رسول الله ﷺ: ليس بكذاب من أصلح بين اثنين فقال خيرا أو نمى خيرا".

الصدق والإخلاص

يرتبط الصدق والإخلاص في الإسلام بالنية، لأن نية المرء دليل صدقه وإخلاصه أو العكس، فهي أول شرط في العبادات كلها، ولذلك عد العلماء الحديث النبوي القائل "إنما الأعمال بالنيات" ثلثَ الإسلام، وهي جزء من حديث طويل رواه البخاري يقول فيه النبي ﷺ: "إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة يَنكِحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه". وفي الحديث أيضا: "إِنَّمَا تُبْعَثُ النَّاسُ عَلَى نِيَّاتِهِم". وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢﴾ (الزمر ٢).

لقد تحدث الإمام أبو حامد الغزالي طويلا في معنى الإصلاح وحقيقته، متبعا في ذلك منهجه التربوي الذي اختاره في جميع أبواب كتابه "إحياء علوم الدين"، لأن الإخلاص عنده هو أساس العمل، وكل عمل بلا إخلاص فهو عمل مردود على صاحبه. ومكان الصدق والإخلاص هو القلب، فإذا صفا القلب من كل شيء كان العمل مقبولا. بل إن الغزالي يرى أن العمل الذي لا يوجد فيه إخلاص هو نوع من الشرك، منطلقا من الجانب اللغوي للشرك، وهو أن يشرك المرء في عمله عملا آخر.

ويرى الغزالي أن العمل إذا كان مقصودا لذاته، غير مختلط بغيره، ولا يُقصد به شيء آخر، كان عملا تتوفر فيه شروط الأخلاق والصدق. يقول: " اعلم أن كل شيء يتصور أن يشوبه غيره، فإذا صفا عن شوبه وخلص عنه سمي خالصا، ويسمى الفعل المصفى المخلص إخلاصا، قال الله تعالى: ﴿مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ [النحل:٦٦]، فإنما خلوص اللبن أن لا يكون فيه

شوب من الدم والفرث، ومن كل ما يمكن أن يمتزج به، والإخلاص يضاده الإشراك، فمن ليس مخلصا فهو مشرك، إلا أن الشرك درجات، فالإخلاص في التوحيد يضاده التشريك في الإلهية. والشرك منه خفي ومنه جلي، وكذا الإخلاص، والإخلاص وضده يتواردان على القلب، فمحله القلب، وإنما يكون ذلك في القصود والنيات".

إن الغزالي يرى أن كل عمل، مهما كانت أهدافه طيبة أو سيئة، هو عمل مخلص، لأنه يتوجه بنوع من الإخلاص والصدق إلى هدف محدد يريد صاحبه تحقيقه. فالذي يريد القيام بعمل شرير يعد مخلصا، لأنه أخلص لهدفه القبيح، والذي يريد القيام بالخيرات يعد مخلصا أيضا، لأنه أخلص في عمله الخيّر. هذا من حيث المعنى اللغوي، لأن الإخلاص في اللغة معناه التجرد والقصد. وفي الحديث النبوي الذي ذكرناه قبل قليل ما يدل على هذا المعنى، فهناك نوعان من النية، نية حسنة ونية سيئة.

أما من الناحية الشرعية فإن الإخلاص المقصود هو أن يكون العمل لوجه الله وحده دون غيره، أي أن الإخلاص يعني فقط العمل الطيب، ولا يدخل فيه العمل السيء. ويشرح لنا الغزالي ذلك فيقول: "وقد ذُكر حقيقة النية وأنها ترجع إلى إجابة البواعث، فمهما كان الباعث واحدا على التجرد، سمي الفعل الصادر عنه إخلاصاً، بالإضافة إلى المنوي، فمن تصدق وغرضه محض الرياء فهو مخلص، ومن كان غرضه محض التقرب إلى الله تعالى فهو مخلص، ولكن العادة جارية بتخصيص اسْمِ الْإِخْلَاصِ بِتَجْرِيدِ قَصْدِ التَّقَرُّبِ إِلَى اللهَّ تعالى عن جميع الشوائب، كما أن الإلحاد عبارة عن الميل ولكن خصصته العادة بالميل عن الحق. ومن كان باعثه مجرد الرياء، فهو معرض للهلاك".

يضرب الغزالي أمثلة للأعمال التي يقوم بها الإنسان ولكنه ينوي بها أهدافا أخرى، غير الأهداف الحقيقة التي وضعت تلك الأعمال لأجلها، أو أنها كما يقول أعمال امتزجت بها بواعث أخرى غير الباعث الأصلي،

والمقصود بالباعث هنا السبب أو الدافع. فالصوم مثلا فريضة في الإسلام، ولكن قد يصوم البعض لا طمعا في الثواب والأجر، بل من أجل الصحة وطلبا للحمية، وهكذا سائر الأعمال الأخرى.

يقول الغزالي: "وإنما نتكلم الآن فيمن انبعث لقصد التقرب، ولكن امتزج بهذا الباعث باعث آخر، إما من الرياء أو من غيره من حظوظ النفس. ومثال ذلك أَنْ يَصُومَ لِيَتَنَفِعَ بِالْحِمْيَةِ الْحَاصِلَةِ بِالصَّوْمِ، مَعَ قصد التقرب. أو يعتق عبدا ليتخلص من مُؤنته وسوء خلقه، أَوْ يَحُجَّ لِيَصِحَّ مِزَاجُهُ بِحَرَكَةِ السَّفَرِ، أَوْ يتخلص من شر يعرض له في بلده، أو ليهرب من عدو له في منزله، أو يتبرم بأهله وولده أو بشغل هو فيه، فأراد أن يستريح منه أياماً، أو ليغزو وليمارس الحرب ويتعلم أسبابه، ويقدر به على تهيئة العساكر وجرها، أو يصلي بالليل وله غرض في دفع النعاس عن نفسه به، ليراقب أهله أو رحله، أو يتعلم العلم ليسهل عليه طلب ما يكفيه من المال، أو ليكون عزيزاً بين العشيرة، أو ليكون عقاره أو ماله محروساً بعز العلم عن الأطماع، أو اشتغل بالدرس والوعظ ليتخلص عن كرب الصمت ويتفرج بلذة الحديث".

ويرتبط بالإخلاص الصدق في العمل، وهما قريبان في المعنى.

إذ يرى أبو حامد الغزالي أن الصدق يستعمل في ستة معان: صدق في القول، وصدق في النية، والإرادة، وصدق في العزم، وصدق في الوفاء بالعزم، وصدق في العمل، وصدق في تحقيق مقامات الدين كلها، ثم يقول: "فمن اتصف بالصدق في جميع ذلك فهو صدّيق، لأنه مبالغة في الصدق".

وقد أخذ الغزالي هذا المعنى من القرآن الكريم، ومن الأحاديث النبوية. قال تعالى: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ (الأحزاب ٢٣)، وَقَالَ النبي ﷺ: "إِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ وَالْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ صِدِّيقًا، وَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَالْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ،

وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حتى يكتب عند الله كذاباً". ويعلق الغزالي قائلا: "ويكفي في فضيلة الصدق أن الصدّيق مشتق منه، والله تعالى وصف الأنبياء به في معرض المدح والثناء فقال: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيّٗا﴾ (مريم ٤١). وكذلك سمي الخليفة الأول أبو بكر الصديق ﷺ، لأنه كان يصدق النبي ﷺ في كل شيء، حتى سمي بذلك.

والصدق عند الغزالي درجات ومراتب، بحسب الباعث والحافز، وبحسب النية والغرض. فهناك صدق القلب وهو النية الحسنة غير المختلطة بأهداف قبيحة، وصدق اللسان وهو قول الحق وتجنب الكذب في الإخبار، ويدخل فيه أيضا صدق الوعد والوفاء به.

يقول الغزالي: "ثم هو أيضا على درجات، فمن كان له حظ في الصدق في شيء من الجملة فهو صادق، بالإضافة إلى ما فيه صدقه: الصدق الأول صدق اللسان، وذلك لا يكون إلا في الإخبار، أو فيما يتضمن الإخبار، وينبه عليه، والخبر إما أن يتعلق بالماضي أو بالمستقبل، وفيه يدخل الوفاء بالوعد والخُلف فيه". ثم ينصح المريدَ فيقول: "وَحَقٌّ عَلَى كُلِّ عَبْدٍ أَنْ يَحْفَظَ أَلْفَاظَهُ، فلا يتكلم إلا بالصدق، وهذا هو أشهر أنواع الصدق وأظهرها".

فالصدق عند الغزالي، كما يقول، هو مساواة السريرة للعلانية، أي أن يكون باطن المرء مثل ظاهره، بحيث لا يقول شيئا وهو ينوي غيره.

ولكن أرفع مقامات الصدق وأعلاها وأعزها هو الصدق في مقامات الدين، كالصدق في الخوف والرجاء والتعظيم والزهد والرضا والتوكل والحب وسائر هذه الأمور، فإن هذه الأمور لها مباد ينطلق الاسم بظهورها، ثم لها غايات وحقائق، والصادق المحقق من نال حقيقتها، وإذا غلب الشيء وتمت حقيقته سمي صاحبه صادقاً فيه".

إن الغزالي يربط بين النية من جهة، وبين الإخلاص والصدق، فهي ثلاثة أمور مترابطة فيما بينها، وكل فضيلة من هذه الفضائل الثلاث من دون الاثنتين

الأخريين تكون بلا فائدة. ولذلك نرى أبا حامد يلح إلحاحا كبيرا على هذه الأمور، حيث يقول: "فالعمل بغير نية عناء، والنية بغير إخلاص رياء، وهو للنفاق كفاء، ومع العصيان سواء. والإخلاص من غير صدق وتحقيق هباء، وقد قال الله تعالى في كل عمل كان بإرادة غير الله مشوباً مغموراً: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ (الفرقان ٢٣). وليت شعري كيف يصحح نيته من لا يعرف حقيقة النية؟ أو كيف يخلُص من صحح النية إذا لم يعرف حقيقة الإخلاص؟ أو كيف تطالب المخلصَ نفسُه بالصدق إذا لم يتحقق معناه؟ فالوظيفة الأولى على كل عبد أراد طاعة الله تعالى أن يتعلم النية أولاً، لتحصل المعرفة، ثم يصححها بالعمل بعد فهم حقيقة الصدق والإخلاص، اللذين هما وسيلتا العبد إلى النجاة والخلاص".

العزلة

تعد العزلة إحدى المفاهيم الكبرى عند أصحاب التصوف والسلوك، فهي بالنسبة للصوفية طريق إلى مجاهدة النفس وتدريبها على التأمل والتفكر، كما أنها بالنسبة لهم أسلوب حياة، تبعدهم عن ضوضاء الواقع وصخبه.

وقد اختار المتصوفة العزلة لأنها حسب فهمهم هي السبيل السالك للابتعاد عن شرور الواقع وسفاسفه، كما أنها تمنحهم حريتهم بشكلها الأخلاقي، فتعبد لهم الطريق الموصل إلى غايات التجرد عن الواقع والمادة، وقد أكد الجنيد ذلك بقوله: "من أراد أن يسلم له دينه، ويستريح بدنه وقلبه، فليعتزل الناس، فإن هذا زمان وحشة، والعاقل من اختار فيه الوحدة"، ويقول عبد المجيد الشرنوبي أيضاً في نفس السياق: "على الصوفي أن يعتزل الخلق الذين لا خير فيهم ويترك فعلهم".

لقد تحدث أبو حامد الغزالي في كتاب عن العزلة باعتبارها تصفية للنفس من أكدار الدنيا، والبعد عن الخلق، والتجرد للعبادة الخالصة النقية، لمشاهدة عظمة الله سبحانه والتقرب منه والأنس به.

ولكن الغزالي لم يمتدح العزلة بحيث يرفض الاختلاط بالناس والعيش في الواقع، بل إنه خصص بابا واسعا في كتابه للمعاشرة والمخالطة والتعارف مع الناس، لكنه وضع شروطا لتلك المخالطة، بحيث تكون فيها فائدة للإنسان، لا أن تكون سببا للغرق في الأخلاق غير الحميدة، بل إنه يرى أن المعاشرة هي نتيجة حسن الخلق عند الإنسان، وأن التفرق والعزلة عن الناس هما نتيجة سوء الخلق. وهنا يقول: " علم أن الألفة ثمرة حسن الخلق، والتفرق ثمرة سوء الخلق، فحسن الخلق يوجب التحاب والتآلف والتوافق، وسوء الخلق

يثمر التباغض والتحاسد والتدابر، ومهما كان المثمر محموداً كانت الثمرة محمودة، وحسن الخلق لا يخفى في الدين فضيلته، وهو الذي مدح الله سبحانه به نبيه ﷺ إذ قال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم:٤]، وقال النبي ﷺ: "أَكْثَرُ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ الْجَنَّةَ تَقْوَى اللهِ وَحُسْنُ الْخُلُقِ"، وقال أيضا: "الْمُؤْمِنُ آلِفٌ مَأْلُوفٌ، وَلَا خَيْرَ فِيمَنْ لَا يَأْلَفُ وَلَا يُؤلَف".

وأشار الغزالي إلى أن المعاشرة والمخالطة والألفة هي من القيم الاجتماعية النبيلة، لأن الإنسان اجتماعي بطبعه، ويثني على المعاشرة قائلا: "لاسِيَّمَا إِذَا كَانَتِ الرَّابِطَةُ هِيَ التَّقْوَى وَالدِّينَ وَحُبَّ اللهِ".

إن الغزالي ينظر إلى العزلة نظرة واقعية، فهي لا تبدأ إلا عندما تنتهي الفوائد من المخالطة والمعاشرة بالحسنى مع الخلق. فالإنسان في حياته الاجتماعية لديه وقتان، وقت للناس ووقت لنفسه، والغزالي يتحدث عن هذا الوقت الثاني، عندما يتفرغ الإنسان لنفسه ويرجع إلى ذاته للتدبر في الخلائق والتأمل في عظيم خلق الله.

لقد جعل الغزالي العزلة من العادات وليس من العبادات، فهي عادة اجتماعية فقط وليست مطلوبة من الناحية الدينية الشرعية، بل مطلوبة فحسب للاستعانة بها على العبادة وإصلاح النفس وتطهيرها مما علق بها خلال احتكاكها بالواقع.

وكما هي عادة الغزالي في جميع المواضيع والأبواب التي يطرحها في كتابه، يبدأ باب العزلة بالثناء على الله وحمده ومدح الأنس به، لأن العزلة عنده ليست عزلة مطلقة، بل هي عزلة فقد عن الخلق، لكنها أنس بالخالق. فيقول في مفتتح الباب: "الحمد لله الذي أعظم النعمة على خيرة خلقه وصفوته، بأن صرف هممهم إلى مؤانسته، وأجزل حظهم من التلذذ بمشاهدة آلائه وعظمته، ورّوح أسرارهم بمناجاته وملاطفته، وحقر في قلوبهم النظر الى متاع الدنيا وزهرتها، حتى اغتبط بعزلته كل من طويت الحجب عن مجاري فكرته،

فاستأنس بمطالعة سبحات وجهه تعالى في خلوته، واستوحش بذلك عن الأُنس بالإنس، وإن كان من أخص خاصته".

ثم يضيف قائلا بأن لكل من المخالطة والعزلة سلبيات وإيجابيات، وأن الناس مختلفون فيهما، وأن البعض يرى أن هناك تناقضا بين الدعوة إلى المخالطة والمعاشرة، والدعوة إلى العزلة عن الخلق، ولكنه يرفض القول بالتناقض ويرى أنهما متكاملان.

لقد ذكر الغزالي أن اختلاف الناس في موقفهم من العزلة يعود إلى مذاهبهم التي يعتنقونها، ويُرجع ذلك الاختلاف بينهم إلى عصر التابعين، فيرى أن هناك مذهبا اختار العزلة وفضلها على المخالطة والمعاشرة والألفة، يمثله سفيان الثوري وابراهيم بن أدهم وداود الطائي، وفضيل بن عياض، وسليمان الخوّاص ويوسف بن أسباط، وحذيفة المَرعشي وبشر الحافي.

ولكن هناك مذهبا هو المذهب الأكبر اختار المخالطة وفضلها على العزلة، لأنه لا يمكن أن يعيش الإنسان خارج المجتمع، ولأن بناء الحضارات والمجتمعات لا يحصل إلا بالجماعة والمشاركة والتعاون بين الخلق. ويذكر الغزالي من أتباع هذا المذهب سعيد بن المسيب والشعبي، وابن أبي ليلى وهشام بن عروة، وابن شبرمة وشريح، وشريك بن عبد الله، وابن عيينة وابن المبارك، والشافعي وأحمد بن حنبل".

والغزالي يسوق مجموعة من الأدلة التي يعتمد عليها أصحاب المذهب الأول الذي يقول بالعزلة، من تلك الأدلة قول موسى عليه السلام في القرآن الكريم: ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ لِى فَٱعْتَزِلُونِ﴾ (الدخان ٢١)، وقوله تعالى في أصحاب الكهف: ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ (الكهف ١٦)، حيث إن الله تعالى أمرهم هنا بالعزلة عن الناس.

كما أن هؤلاء يستشهدون بعزلة النبي ﷺ قريشا عندما آذوه وجفوه، فأمر أصحابه بالهجرة إلى الحبشة للاعتزال عنهم، ثم هاجر إلى المدينة مع الصحابة.

ولكن الغزالي يرفض تلك الأدلة ويرد عليه ويقول: "وفي الإحتجاج بهذه الأحاديث نظر".

يقسم أبو حامد الغزالي فوائد العزلة إلى نوعين، فوائد دينية وفوائد دنيوية.

فالفوائد الدينية حسب قوله: "تنقسم إلى ما يمكن من تحصيل الطاعات في الخلوة، والمواظبة على العبادة والفكر، وتربية العلم، وإلى التخلص من ارتكاب المناهي التي يتعرض الإنسان لها بالمخالطة، كالرياء والغيبة والسكوت عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومسارقة الطبع من الأخلاق الرديئة، والأعمال الخبيثة من جلساء السوء".

أما الفوائد الدنيوية للعزلة فهي تتمثل في تجنب الإنسان كل ما يمكن أن يصيبه من شر أو مكروه عند المخالطة، كالطمع في الدنيا والنظر إلى الخلق والتطبع بطباعهم، أو السقوط في النميمة والغيبة والحسد، وغير ذلك من المحاذير التي يحذر منها الغزالي.

وعموما يرى الغزالي أن العزلة لها فوائد عدة، منها التفرّغ للعبادة والفكر والإستئناس بمناجاة الله سبحانه، والتفكر في أمور الدنيا والآخرة، ولا توجد وسيلة أخرى إلى هذا كله سوى العزلة، لأنه الفرصة الوحيدة التي يكون فيها الإنسان مختليا إلى نفسه معزولا عن المؤثرات الخارجية. ويرى أن هناك صنفا من الناس تمنعهم المخالطة عن التأمل والتفكر، لذلك فإن العزلة أفضل لهم من المخالطة، رغم أنه يرى أن المخالطة هي الأصل والعزلة هي الاستثناء.

ويرى الغزالي أن هذه الفوائد متعلقة بالمقاصد الدنيوية الحاضرة، ولكنها أيضاً تتعلق بالدين، لأن المخالطة قد تؤدي أحيانا إلى فساد الدين.

إذا كانت هذه هي فوائد العزلة عند الإمام الغزالي، فإن هناك فوائد للمخالطة والمعاشرة لا تقل أهمية. وهنا نرى صاحب "إحياء علوم الدين" يرى أن البعد الاجتماعي للإنسان لا يتحقق إلا بالعيش مع الآخرين، من أجل الكسب والمعاش والمعاملة، فيقول: "وذلك لا يتأتى إلا بالمخالطة، والمحتاج إليه مضطر إلى ترك العزلة"، ولكنه في نفس الوقت يرى أن الإنسان إذا كان له اكتفاء ذاتي في أموره المعاشية فإن العزلة أفضل له، إلا إذا كان يسعى إلى أن يتكسب من أجل الصدقة.

يقول الغزالي: "فإذا اكتسب من وجهه وتصدق به، فهو أفضل من العزلة للاشتغال بالنافلة، وليس بأفضل من العزلة للاشتغال بالتحقق في معرفة الله، ومعرفة علوم الشرع، ولا من الإقبال بكُنه الهمة على الله تعالى، والتجرد بها لذكر الله، أعني من حصل له أنس بمناجاة الله عن كشف وبصيرة، لا عن أوهام وخيالات فاسدة".

ومن فوائد المخالطة أيضا عند الغزالي التعاون مع الناس ونفعهم بماله أو بدنه، وقضاء حاجاتهم، لأن قضاء حوائج الناس فيه أجر كبير، وهذا لا يحصل إلا بمخالطتهم.

ومن فوائدها أيضا التأديب والتأدب، ويعني بهما الغزالي في حديثه الاحتكاك بالناس والعيش معهم لقهر النفس وتدريبها على المجاهدة والصبر والتحمل، ويسميها: "الِارْتِيَاضَ بِمُقَاسَاةِ النَّاسِ وَالْمُجَاهَدَةِ فِي تَحَمُّلِ أَذَاهُمْ، كَسْرًا لِلنَّفْسِ وَقَهْرًا لِلشَّهَوَاتِ".

ويرى أن التأديب والتأدب الناتجين عن المخالطة والمعاشرة مع الخلق هما من الفوائد التي تستفاد بالمخالطة "وهي أفضل من العزلة في حق من لم تتهذب أخلاقه، ولم تذعن لحدود الشرع شهواته"، حسب كلامه. ويستدل الغزالي في هذه القضية بخدام الصوفية الذين يعملون في الرباطات والزوايا، فيخالطون الناس بخدمتهم، طلبا لبركة الصوفية ودعاء الصالحين منهم.

المخالطة والتجارب

رأينا في الفقرة السابقة أن الغزالي يتحدث عن العزلة والمخالطة بوصفهما خصلتين متكاملتين، إحداهما تكمل الأخرى؛ فالعزلة ضرورية للدين والمخالطة ضرورية للدنيا، وهذا التكامل بين هاتين الخصلتين الأخلاقيتين هما الدعامتان الرئيسيتان في الفكر الصوفي عند الغزالي، ذلك الفكر المبني على التصوف المعتدل الذي يركز على التربية والسلوك، ويستهدف تطهير الأنفس البشرية من الأدران والأوساخ، وربطها بالقيم الإيجابية، التي هي قيم دينية واجتماعية في نفس الوقت. ذلك أن مفهومي العزلة والمخالطة هما مفهومان اجتماعيان، رغم أن منطلق الغزالي في الحديث عنهما هو منطلق ديني تربوي، لكنه في النهاية يصب في تهذيب السلوك الاجتماعي للأفراد.

إن المشاركة الاجتماعية للإنسان في محيطه ومجتمعه، والفعالية الواقعية في صناعة التطور والتنمية، لا يمكن أن تحصل إلا من خلال اندماج الفرد في الجماعة، وهو معنى المخالطة عند الغزالي. ومن فوائد المخالطة عند هذا العلامة المساهمة في بناء المجتمع من خلال الكسب، وتعلم التعايش مع الآخرين، وفهم الواقع، ومساعدة أعضاء المجتمع والتفاعل معهم. ورغم أن الغزالي يستفيض في الحديث عن العزلة وتمجيد فوائدها الكثيرة، إلا أنه يرى أنها ليست القاعدة في الاجتماع البشري، بل الاستثناء.

إن الغزالي هنا يخوض في ما يسميه البعض "طب النفوس"، وهو مصطلح شهير عند أصحاب التصوف والسلوك، يميزونه عن طب الأبدان، فطب النفوس يعالج أمراض الباطن، وطب الأبدان يعالج أمراض الظاهر. ولذلك نرى الغزالي يستغرق طويلا في الحديث عن أصناف النفوس، حين يتحدث

عـن العزلـة والمخالطـة والتجـارب، فيبـدو ماهـرا في تحليـل النفسـيات، وكأنـه بذلـك سـبق علـم النفـس الحديـث بقـرون.

فهـو يـرى أن الإنسـان إذا كان بالـغ الحكمـة، ويتصـف بالفضيلـة، ولا يخشـى عـلى نفسـه مـن المخالطـة مـع النـاس، فهـذا يتعـين عليـه أن يختلـط بالقـوم دون خشـية، لأن الاختـلاط بالنـاس والاحتـكاك بهـم هـو مصـدر التجـارب، أمـا إذا كان الإنسـان هـش البنـاء الأخلاقـي، فعليـه أن يختـار العزلـة ليحافـظ عـلى بنيانـه. يقـول الغزالي: "ولذلـك قـال بعـض الحكـماء: إنـما يسـتوحش الإنسـان مـن نفسـه لخلـو ذاتـه عـن الفضيلـة، فيكثـر حينئـذ ملاقـاة النـاس، ويطـرد الوحشـة عـن نفسـه بالكـون معهـم، فـإذا كانـت ذاتـه فاضلـة طلـب الوحـدة ليسـتعين بهـا عـلى الفكـرة، ويسـتخرج العلـم والحكمـة".

يشـترط الغـزالي في المخالطـة شروطـا معينـة، تتمثـل فيـما يسـميه آداب المخالطـة. ذلـك أن الإنسـان الـذي يتعامـل مـع الآخريـن ويحتـك بأعضـاء مجتمعـه، عليـه أن تتوفـر فيـه جملـة مـن الآداب والمواصفـات الأخلاقيـة والسـلوكية، لكـي يكـون إيجابيـا. فهـو يقول: "اعلـم أن الإنسـان إمـا أن يكـون وحـده أو مـع غـيره، وإذا تعـذر عيـش الإنسـان إلا بمخالطـة مَـنْ هُـوَ مِـنْ جِنْسِـهِ، لَمْ يَكُـنْ لَـهُ بُـدٌّ مِـنْ تَعَلُّـمِ آدَابِ الْمُخَالَطَـةِ، وَكُلُّ مُخَالِـطٍ فَفِـي مُخَالَطَتِـهِ أَدَبٌ، وَالْأَدَبُ عَـلَى قَـدْرِ حَقِّـهِ، وحقـه عـلى قـدر رابطتـه التـي بهـا وقعـت المخالطـة".

وتتمثـل هـذه الآداب عند أبي حامد الغـزالي في مراعاة النـاس، وإعطائهم حقوقهم، كل بحسـب درجتـه وقرابتـه منـه في ترتيـب الرابطـة التي تجمعـه بهـم. فالدرجة الأولى مـن هـذه الروابـط الاجتماعيـة هـي القرابـة، وهـي عنـد الغـزالي أهـم تلـك الروابط، لأنهـا ترتبـط بأخـوة الإسـلام، وتنـدرج فيهـا قيـم الأخـوة والصداقـة والصحبـة.

بعـد تلـك الرابطـة، وهـي رابطـة القرابـة، تـأتي رابطـة الجـوار، ثـم رابطة السـفر، ثـم رابطـة المكتـب، أي العمـل، ثـم رابطـة الـدرس، أي المشـاركة في طلـب العلـم

والزمالة. ويقول الغزالي إن لكل من هذه الأشكال من القرابة حقوق، فَالْقَرَابَةُ لَهَا حَقٌّ، وَلَكِنَّ حَقَّ الرَّحِمِ أكبر، وللرحم حَقٌّ، وَلَكِنَّ حَقَّ الْوَالِدَيْنِ أكبر، وكذلك حق الجار، لكن حق الجار يختلف باختلاف القرب أو البعد من الدار.

يربط الغزالي بين التجارب وإيجابيات المخالطة، فالتجارب لا يمكن تحصيلها من دون مخالطة الواقع والصبر عليه وتحمله، حتى يصقل الإنسان مواهبه ويقوي أهليته، لذلك نراه يمدح المخالطة والاختلاط ويعدد فوائدها الكثيرة، فيقول مثلا :"فانظر إلى فوائد المخالطة والدواعي إليها ما هي، وهي التعليم والتعلم والنفع والانتفاع، والتأديب والتأدب، والاستيناس وَالْإِينَاسُ، وَنَيْلُ الثَّوَابِ وَإِنَالَتُهُ فِي الْقِيَامِ بِالْحُقُوقِ، واعتياد التواضع، واستفادة التجارب من مشاهدة الأحوال والاعتبار بها".

وعند الغزالي لا يمكن للإنسان أن يصل إلى ما يصبو إليه دون مراكمة التجارب والاستفادة منها واستخلاص الدروس والعبر منها، وإلا كان شخصا سلبيا عديم الفطنة غير قادرة على تطوير ذاته. فهو يرى أن "ومن لا تنفعه التجارب لا يدرك المعالي".

ويطلق الغزالي على هذا الأمر "علوم التجارب"، لأن التجربة في حد ذاتها علم، وهي تؤثر في طبيعة الإنسان وعقليته وقدرته على الفهم والاستيعاب والتعامل مع المشكلات الطارئة. وعند الغزالي أنه كلما تفاوت الناس في التجارب تفاوتوا في الوصول إلى الهدف وفي الفهم والإدراك، يقول:"وأما القسم الثالث وهو علوم التجارب، فتفاوت الناس فيها لا ينكر، فإنهم يتفاوتون بكثرة الإصابة وسرعة الإدراك، ويكون سببه إما تفاوتاً في الغريزة وإما تفاوتاً في الممارسة".

إن التجارب عند الغزالي لها وظيفة مهمة جدا في صقل الموهبة العقلية عند الإنسان، وتطوير مهاراته الغريزية. فإذا كان الإنسان يدرك بالعقل الغريزي

بعض الحقائق البديهية، وهي الحقائق التي تكون مغروزة في النفس بحكم الخلق الإلهي الذي زوده بالعقل وحاسة التمييز، إلا أن تلك الغريزة وحدها غير كافية دون التجربة التي تنتج عن المخالطة والمعايشة مع الآخرين.

يعترف الغزالي بأن الناس تختلف في الغريزة، إذ ليس كل الناس يخلقون على نمط واحد وبنفس الخواص والمميزات والمؤهلات، ولذلك يقول: "فأما الأول وهو الأصل، أعني الغريزة، فالتفاوت فيه لا سبيل إلى جحده، فإنه مثل نور يشرق على النفس ويطلع صبحه، ومبادىء إشراقه عند سن التمييز، ثم لا يزال ينمو ويزداد نمواً خفي التدريج، إلى أن يتكامل بقرب الأربعين سنة، ومثاله نور الصبح، فإن أوائله تخفى خفاء يشق إدراكه، ثم يتدرج إلى الزيادة إلى أن يكمل بطلوع قرص الشمس". ويقول أيضا: "وَالْعَقْلُ الْغَرِيزِيُّ لَيْسَ كَافِيًا فِي تَفَهُّمِ مَصَالِحِ الدِّينِ وَالدُّنْيَا".

المخالطة عند الغزالي نقيض الانعزال والوحدة، ولكن لكل واحدة منهما فوائد وسلبيات، كما رأينا في حلقة سابقة، ولهذا فإن الغزالي يرفض رفضا مطلقا أن يعطي حكما قاطعا حول تفضيل الانعزال أو المخالطة، بل ينظر إليهما باعتدال وحكمة، حسب الظروف والأحوال، وحسب قابلة الشخص وحاجاته.

وفي هذا السياق يؤكد على مسألة أساسية، وهي مقاصد كل خصلة من هاتين الخصلتين، فهو يقول: "إذا عرفت فوائد العزلة وغوائلها، تحققت أن الحكم عليها مطلقاً بالتفضيل نفياً وإثباتاً خطأ، بل ينبغي أن ينظر إلى الشخص وحاله، والى الخليط وحاله، والى الباعث على مخالطته، والى الفائت بسبب مخالطته من هذه الفوائد المذكورة، ويقاس الفائت بالحاصل، فعند ذلك يتبين الحق ويتضح الأفضل، وكلام الشافعي ﷺ هو فصل الخطاب، إذ قال: " يا يونس، الانقباض عن الناس مكسبة للعداوة، والانبساط اليهم مجلبة لقرناء السوء، فكن بين المنقبض والمنبسط". ثم يضيف الغزالي مستنتجا

مـن كلام الشـافعي قائلا: "فلذلـك يجـب الاعتـدال في المخالطـة والعزلـة، ويختلـف ذلـك بالأحـوال، وبملاحظـة الفوائـد والآفـات يتبـين الأفضـل".

ويـضرب الغزالي مثلا لفوائد المخالطة بالصبي الصغـير الذي يكبر بعيدا عن الناس، فإنـه لا يتعلم شـيئا ولا يحصل على التجارب في الحياة، لكي يسـتنتج بـأن التجارب هي أحـد أهم مصادر العلـوم والمعرفة، يقول عـن المعرفة: "وَإِنَّمَا تُفِيدُهَا التَّجْرِبَةُ وَالْمُمَارَسَـةُ، وَلَا خَـيْرَ فِي عُزْلَـةِ مَـنْ لَمْ تُحَنِّكْـهُ التَّجَـارِبُ، فَالصَّبِـيُّ إِذَا اعْتَزَلَ بَقِـيَ غُمْـرًا جَاهِلًا، بَلْ يَنْبَغِـي أَنْ يَشْـتَغِلَ بِالتَّعَلُّـمِ وَيَحْصُـلَ لَـهُ فِي مُـدَّةِ التَّعَلُّـمِ مَـا يَحْتَـاجُ إِلَيْـهِ مِـنَ التجارب، ويكفيـه ذلـك، ويحصـل بقيـة التجـارب بسـماع الأحـوال ولا يحتـاج إلى المخالطـة".

مـع أبي حامـد الغـزالي وموقفـه مـن المخالطـة والمعايشـة نتذكـر آراء ابـن خلـدون حـول الاجتـماع البشريـة، فهـما معـا ينطلقـان مـن أن الإنسـان مـدني بطبعـه، وأنـه كائـن اجتماعـي، لأن الفـرد وحـده لا يسـتطيع القيـام بجميـع أغراضـه وحاجاتـه، ذلـك لا بـد مـن التعـاون مـن أجـل الصنائـع وبنـاء العمـران.

يقـول الغـزالي: "ولا يخفـى أن الطـب كذلـك، فإنـه قـد يحتـاج إليـه في حفـظ الصحـة عـلى البـدن، ولـو كان الإنسـان وحـده لاحتـاج إليـه، والفقـه يفارقـه في أنـه لـو كان الإنسـان وحـده ربـما كان يسـتغني عنـه، ولكنـه خلـق عـلى وجـه لا يمكنـه أن يعيـش وحـده، إذ لا يسـتقل بالسـعي وحـده في تحصيـل طعامـه بالحراثـة والـزرع والخبـز والطبـخ، وفي تحصيـل الملبـس والمسـكن، وفي إعـداد آلات ذلـك كلـه، فاضطـر إلى المخالطـة والاسـتعانة". ثـم يقـول أيضـا" الفائـدة السـابعة التَّجَـارِبُ، فَإِنَّهَـا تُسْـتَفَادُ مِـنَ الْمُخَالَطَـةِ لِلْخَلْـقِ وَمَجَـارِي أَحْوَالِهِـمْ".

ولكـن الغـزالي يذكـر نوعـا آخر مـن المخالطـة، وهـو مخالطـة الصوفيـة وأصحاب السـلوك ومسـاكنتهم، بحسـب تعبيره.

وهنـاك نـوع آخـر مـن التجـارب، وهـو أن يجـرب الإنسـان نفسـه وأخلاقـه وصفاتـه الباطنيـة، وهـذا النـوع مـن التجـارب لا يحصـل إلا بالمخالطـة مـع النـاس،

إذ يرى الغزالي أن الإنسان إذا كان وحده في عزلته فإن عيوبه لن تظهر له، ولكن يراها في احتكاكه بالآخرين، فيجرب نفسه هل هو حسود أو حقود أو كثير الغضب أو عديم الصبر.

ومن أهم التجارب أن يجرب نفسه وأخلاقه وصفات باطنه وذلك لا يقدر عليه في الخلوة "فإن كل مجرب في الخلاء يسر، وكل غضوب أو حقود أو حسود إذا خلا بنفسه لم يترشح منه خبثه، وهذه الصفات مهلكات في أنفسها يجب إماطتها وقهرها، ولا يكفي تسكينها بالتباعد عما يحركها".

السفر

أفرد الإمام الغزالي الباب السابع من الإحياء للسفر وآدابه وفضائله وفوائده، وسماه "كتاب آداب السفر". ولأن السفر مرتبط بالتجارب والخبرات الإنسانية، والتعارف والاحتكاك مع الناس، والمخالطة للخلق، فإن الغزالي على نهجه الدائم في كل أبواب كتابه، يستهل هذا الباب بدعاء يتضمن كافة العناصر والإيجابيات في السفر، حيث يقول: "الحمد لله الذي فتح بصائر أوليائه بالحكم والعبر، واستخلص همهم لمشاهدة عجائب صنعه في الحضر والسفر، فأصبحوا راضين بمجاري القدر، منزهين قلوبهم عن التلفت إلى متنزهات البصر، إلا على سبيل الاعتبار بما يسبح في مسارح النظر، ومجاري الفكر، فاستوى عندهم البر والبحر، والسهل والوعر، والبدو والحضر". ثم يقول: "أما بعد، فإن السفر وسيلة إلى الخلاص عن مهروب عنه، أو الوصول إلى مطلوب ومرغوب فيه".

يشكل السفر مناسبة للمخالطة مع الناس والتعارف معهم واقتباس الفوائد منهم، إذ كلما تعدد الناس تعددت التجارب، وفي السفر يستطيع الإنسان أن يضيف إلى خبراته خبرات الآخرين، ويعزز رصيده من المعارف، ويتعرف إلى لغات الناس وعاداتهم، فيغني بذلك مداركه ومواهبه العقلية.

يقول الغزالي في تعريف السفر: "اعلم أن السفر نوع حركة ومخالطة، وفيه فوائد وله آفات".

وللسفر عند الغزالي سببان أو باعثان، فهو إما سفر للهرب من شيء، أو سفر لطلب شيء، حيث يقول: "والفوائد الباعثة على السفر لا تخلو من هرب أو طلب. فإن المسافر إما أن يكون له مزعج عن مقامه، ولولاه لما كان له مقصد يسافر إليه، وإما أن يكون له مقصد ومطلب".

أما سفر الهروب فهو السفر الذي تكون غايته التخلص من بعض الأمور الدنيوية، كالطاعون والوباء إذا ظهر ببلد، أو خوف سببه فتنة أو خصومة، أو غلاء الأسعار.

فهذا هو السفر الذي يكون هربا من النكاية في الدنيا.

وهناك السفر الذي يكون هربا من النكاية في الدين، كمن رأى في بلده انتشار الأسباب التي تحول بينه وبين العبادة الخالصة لله، أو رأى انتشار البدع والدعوة إليها بالقهر والتسلط، أو عرضت عليه ولاية من الولايات، أي مسؤولية، فلم يرغب فيها وأراد الفرار منها.

وكما أن السفر تختلف دوافعه وبواعثه بسبب الحالات، هل هي حالات دنيوية أم دينية، هناك أيضا نوع آخر من السفر الذي يختلف بحسب أهدافه وأغراضه. وهذا النوع من السفر نوعان أيضا، إما سفر الغرض منه الحصول على أمور ترتبط بالدنيا، أو سفر الغرض منه الحصول على أمور ترتبط بالدين.

فالأول مثل الرغبة في الحصول على المال والجاه، والثاني مثل الرغبة في تعلم العلم أو النظر في آيات الله في الأرض أو العبادة أو الزيارة. يقول الغزالي: "وأما المطلوب فهو إما دنيوي كالمال والجاه، أو ديني. والديني إما علم وإما عمل. والعلم إما علم من العلوم الدينية وإما علم بأخلاق نفسه وصفاته على سبيل التجربة، وإما علم بآيات الأرض وعجائبها، كسفر ذي القرنين وطوافه في نواحي الأرض. والعمل إما عبادة وإما زيارة. والعبادة هو الحج والعمرة والجهاد. والزيارة أيضا من القربات، وقد يقصد بها مكان كمكة والمدينة وبيت المقدس والثغور، فإن الرباط بها قربة. وقد يقصد بها الأولياء والعلماء، وهم إما موتى فتزار قبورهم، وإما أحياء فيتبرك بمشاهدتهم، ويستفاد من النظر إلى أحوالهم قوة الرغبة في الاقتداء بهم".

ويرى الغزالي أن السفر في طلب العلم يختلف باختلاف نوع العلم والدافع إليه، فقد يكون العلم واجبا، وقد يكون نافلة.

يقسم الغزالي السفر إلى نوعين أساسيين، سفر بظاهر البدن، وهو السفر المادي الذي يقطع فيه المرء المسافات والصحاري والفلوات، وسفر بباطن النفس، ويعبر عنه بقوله "وسفر بسير القلب عن أسفل السافلين إلى ملكوت السموات". وعندما قارن بين هذين النوعين من السفر يعتبر السفر الباطني، أي سفر القلب، أشرف أنواع السفر.

ومن حكم السفر عند الغزالي أنه ينقل الإنسان من مرحلة النشأة على الطبع والغريزة إلى مرحلة التجربة والمعايشة، ويخرجه من التقليد إلى النضج، وذلك لأن الاستقرار في نفس المكان نوع من الجمود يجعل مجال الإنسان محدود الآفاق، لا يستكشف العالم ولا يختبر الناس. ويشرح الغزالي مقصوده من هذا فيقول: "فإن الواقف على الحالة التي نشأ عليها عقيب الولادة، الجامد على ما تلقفه بالتقليد من الآباء والأجداد، لازم درجة القصور وقانع بمرتبة النقص، ومستبدل بمتسع فضاء جنة عرضها السماوات والأرض ظلمة السجن وضيق الحبس، ولقد صدق القائل:

ولم أر في عيوب الناس عيباً كنقص القادرين على التمام

ويرى الغزالي أن الشرع دعا إلى السفر والتنقل في الأرض، للاطلاع على الخلق، مما يساعد الإنسان على معرفة الخالق، والتأمل في الأكوان، والتعرف على آيات الله في الأرض، فيقول: "وإليه دعا الله سبحانه بقوله ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [فُصِّلَت:٥٣] وبقوله تعالى ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ [الذاريات:٢١، ٢٢].

إن الغزالي يعتبر بأن العلوم في الإسلام كانت تحصل بالسفر وليس بالاستقرار، فقد كان العلماء والفقهاء يسافرون من أجل التعلم، وأخذ الحديث النبوي من العلماء، والمشاركة في مجالس العلم، وحفظ القرآن على يد الشيوخ. ولهذا السبب يعتبر الغزالي أن السفر ليس مسألة تتعلق بالرغبة الشخصية أو

الترف أو التجول، بل هو ضروري لبقاء العلوم واستمرارها جيلا بعد جيلا. ففي التاريخ الإسلامي لم يكن العلماء والفقهاء يستقرون في مكان واحد، بل كانوا يعيشون في أماكن متفرقة متباعدة عن بعضها البعض، فكان لا بد كلكل من يريد التعلم على أيديهم أن يسافر إليهم ويقطع المسافات إليهم.

وفي هذا السياق يقول الغزالي: "كل مذكور في العلم مُحصّل له من زمان الصحابة إلى زماننا هذا، لم يُحصل العلم إلا بالسفر وسافر لأجله، وإما علمه بنفسه وأخلاقه. فذلك أيضا مهم، فإن طريق الآخرة لا يمكن سلوكها إلا بتحسين الخلق وتهذيبه، ومن لا يطلع على أسرار باطنه وخبائث صِفَاتِهِ لَا يَقْدِرُ عَلَى تَطْهِيرِ الْقَلْبِ مِنْهَا".

ومن فوائد السفر عند الغزالي أنه يكشف عن معادن الناس وأخلاقهم، فالسفر مشتق من السفور، والسفور معناه التعرية والكشف والتوضيح. يقول الغزالي: "وإنما السفر هو الذي يسفر عن أخلاق الرجال، وبه يُخرج الله الخبء في السماوات والأرض. وإنما سمى السفر سفرا لأنه يسفر عن الأخلاق، ولذلك قال عمر ﷺ للذي زكى عنده بعض الشهود: "هل صحبته في السفر الذي يستدل به على مكارم أخلاقه."، فقال: لا . فقال: ما أراك تعرفه.

ثم يضيف الغزالي شارحا رأيه: "وبالجملة، فإن النفس فِي الْوَطَنِ مَعَ مُوَاتَاةِ الْأَسْبَابِ لَا تَظْهَرُ خَبَائِثُ أَخْلَاقِهَا، لِاسْتِئْنَاسِهَا بِمَا يُوَافِقُ طَبْعَهَا مِنَ المألوفات المعهودة. فإذا حملت وعثاء السفر، وصرفت عن مألوفاتها المعتادة، وامتحنت بمشاق الغربة، انكشفت غوائلها ووقع الوقوف على عيوبها، فيمكن الاشتغال بعلاجها".

إذا كانت فوائد السفر تتمثل في التعرف إلى ملكوت الله وآياته في الخلق، وكان الشرع قد ألح على السفر كما رأينا مع الغزالي، فإن القعود عن السفر والمكوث في نفس المكان يعد أمرا سلبيا استنكره الشرع، لأنه يتناقض مع ما هو مطلوب من الإنسان من العبادة، والعبادة ليست القيم بالأركان في

نفس المكان فقط، بل هي النظر إلى الخلق، كما قال تعالى "قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق".

ولذلك نرى أن الغزالي يرفض أن يبقى الإنسان في مكانه لا يتحول، ويعيش في عالم ضيق لا تتجدد فيه الأفكار، فيؤكد بأن القرآن الكريم نهى عن القعود في المكان الواحد، في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ (الصافات ١٣٧ ـ ١٣٨)، وبقوله سبحانه ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ (يوسف ١٠٥)، ويعلق الغزالي قائلا: "فمن يُسر له هذا السفر لم يزل في سيره متنزها في جنة عرضها السماوات والأرض، وهو ساكن بالبدن مستقر في الوطن".

إن منافع ومغانمه السفر عند الغزالي لا تكاد تحصى، فهو يقول: "السفر لا تضيق فيه المناهل والموارد، ولا يضر فيه التزاحم والتوارد، بل تزيد بكثرة المسافرين غنائمه وتتضاعف ثمراته وفوائده. فغنائمه دائمة غير ممنوعة وثمراته متزايدة غير مقطوعة، إلا إذا بدا للمسافر فترة في سفره ووقفة في حركته، فإن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم".

السماع الصوفي

يعتبر السماع من الفنون الروحية عند الجماعات الصوفية في التاريخ الإسلامي، فقد أعطته هذه الجماعات أهمية كبيرة في المدائح النبوية والأناشيد الدينية، بل كان السماع وسيلة مهمة في نشر القيم الروحية بين الناس لدى الزوايا الصوفية، لأن الناس ترتاح إلى الترويح عن النفس والغناء والطرب والألحان، فأصبح السماع والرقص ثقافة شعبية بفضل الطرق الصوفية التي تستخدمه في المواسم والأعياد الدينية.

وقد ظهر السماع في القرن الثالث الهجري، حيث ازدهر مع بعض أقطاب الصوفية أمثال ذي النون المصري والجنيد، وقد عرفه ابن عربي بقوله: "السماع سر من أسرار الله تعالى التي لا عمارة للقلوب إلا به". ويعتمد السماع الصوفي في غالبيته على الإنشاد الجماعي كدليل على التلاحم الروحي بين الجماعة الصوفية، وكرسالة مفادها قبول الآخر ونشر المحبة والتسامح بين البشر.

وقد خصص الغزالي في كتاب الإحياء فصلا كاملا لقضية السماع، سماه "كتاب آداب السماع والوجد". استهله بدعاء يفيد أهمية السماع في التربية والعبادة، فقال: "الحمد لله الذي أحرق قلوب أوليائه بنار محبته ،واسترقّ هممهم وأرواحهم بالشوق الى لقائه ومشاهدته، ووقف أبصارهم وبصائرهم على ملاحظة جمال حضرته، حتى أصبحوا من تنسم روح الوصال سكرى، وأصبحت قلوبهم من ملاحظة سبحات الجلال والهة حيرى، فلم يروا في الكونين شيئاً سواه، ولم يذكروا في الدارين إلا إياه، إن سنحت لأبصارهم صورة عبرت الى المصور بصائرهم، وإن قرعت أسماعَهم نغمة سبقت إلى المحبوب سرائرهم، وإن ورد عليهم صوت مزعج أو مقلق أو مطرب أو محزن

أو مهيج أو مشوق أو مهيج، لم يكن انزعاجهم إلا إليه ولا طربهم إلا به، ولا قلقهم إلا عليه ولا حزنهم إلا فيه، ولا شوقهم إلا إلى ما لديه ولا انبعاثهم إلا له ولا ترددهم إلا حواليه. فمنه سماعهم وإليه استماعهم. فقد أقفل عن غيره أبصارهم وأسماعهم، أولئك الذين اصطفاهم الله لولايته واستخلصهم من بين أصفيائه وخاصته".

ثم يقول: "فإن القلوب والسرائر خزائن الأسرار ومعادن الجواهر، وقد طويت فيها جواهرها كما طويت النار في الحديد والحجر، كما أخفى الماء تحت التراب والمدر، ولا سبيل الى استثارة خفاياها إلا بقوادح السماع، ولا منفذ الى القلوب إلا من دهليز الأسماع، فالنغمات الموزونة المستلذة تخرج ما فيها وتظهر محاسنها أو مساويها، فلا يظهر من القلب عند التحريك إلا ما يحتويه".

إن أبا حامد الغزالي يرى أن أسلوب السماع له هدف أكبر من مجرد الطرب، كما يمكن أن تعتقد العامة، بل هو وسيلة للتربية والتهذيب والتخليق، وغسل القلوب وإخراج صدئها. فقد خلق الله الإنسان وغرز في طبيعته الميل إلى اللحن الجميل والصوت الحسن، ومحبة الحركة والطرب. يقول الغزالي: "كما لا يرشح الإناء إلا بما فيه، فالسماع للقلب محك صادق ومعيار ناطق، فلا يصل نفس السماع إليه إلا وقد تحرك فيه ما هو الغالب عليه، وإذا كانت القلوب بالطباع مطيعة للأسماع، حتى أبدت بواردتها مكامنها، وكشفت بها عن مساوئها وأظهرت محاسنها، وجب شرح القول في السماع والوجد وبيان ما فيهما من الفوائد والآفات، وما يستحب فيهما من الآداب والهيئات، وما يتطرّق إليهما من خلاف العلماء في أنهما من المحظورات أو المباحات".

إن السماع حالة روحية نفسية لها تأثير في قلب الإنسان، لأنها تثمر حالة روحية يسميها الغزالي الوجد، والوجد في اللغة هو التأثر الطبيعي الذي ليس فيه تكلف، وإنما يحصل بشكل تلقائي، وهو حالة من الانفعال الروحي.

ويضع الغزالي ترتيبا لحالة السماع تبدأ من الوجد، ثم تصل إلى الحركة، حيث يحرك الإنسان أطرافه إذا وصل إلى درجة الوجد، والحركة نوعان، حركة غير موزونة يسميها الاضطراب، وحركة موزونة يسميها التصفيق والرقص. يقول أبو حامد: "اعلم أن أول درجة السماع فهم المسموع، وتنزيله على معنى يقع للمستمع، ثم يثمر الفهم الوجد، ويثمر الوجد الحركة بالجوارح".

إن الإنسان الكامل عند الغزالي، بالمعنى الصوفي، لا بد أن يحتاج إلى الترويح عن النفس، لأن الترويح فيه علاج لقسوة القلب. ولكن الإنسان الكامل لا يسعى إلى الترويح بأي وسيلة كانت، بل لا بد أن تكون الوسيلة شرعية مقبولة.

يقول الغزالي: "فإن الكامل هو الذي لا يحتاج أن يروح نفسه بغير الحق، ولكن حسنات الأبرار سيئات المقربين، ومن أحاط بعلم علاج القلوب ووجوه التلطف بها لسياقتها إلى الحق، علم قطعاً أن ترويحها بأمثال هذه الأمور دواء نافع لا غنى عنه".

ويرى الغزالي أن المستمع له أربعة أحوال، الحالة الأولى هي حالة تتعلق بالطبع فقط دون فهم، وهي حالة قريبة من حالة الحيوان. يقول الغزالي: "وللمستمع أربعة أحوال، إحداها أن يكون سماع بمجرد الطبع، أي لاحظ له في السماع إلا استلذاذ الألحان والنغمات. وهذا مباح وهو أخسر رتب السماع، إذ الإبل شريكه له فيه وكذا سائر البهائم. بل لا يستدعى هذا الذوق إلا الحياة، فلكل حيوان نوع تلذذ بالأصوات الطيبة".

الحالة الثانية أن يسمع بفهم، وهذا النوع من السماع عند الغزالي هو سماع الشباب وأرباب الشهوات، وهو ينهى عنها، حيث يقول: ""ويكون تنزيلهم للمسموع على حسب شهواتهم ومقتضى أحوالهم، وهذه الحالة أخس من أن نتكلم فيها إلا ببيان خستها والنهي عنها".

الحالة الثالثة أن ينزل ما يسمعه على أحوال نفسه في معاملته لله تعالى وتقلب أحواله في التمكن مرة والتعذر أخرى، وهذا سماع المريدين لا سيما المبتدئين، فإن للمريد لا محالة مراداً هو مقصده، ومقصده معرفة الله سبحانه". والحالة الرابعة هي حالة الخاصة من الصوفية.

يناقش أبو حامد الغزالي الأدلة الشرعية في تحريم فن السماع الصوفي أو عدم تحريمه، إذ يرى أنه لا يوجد نص شرعي يحرم السماع. يقول: "اعلم أن قول القائل السماع حرام معناه أن الله تعالى يعاقب عليه، وهذا أمر لا يعرف بمجرد العقل بل بالسمع، ومعرفة الشرعيات محصورة في النص أو القياس على المنصوص، وأعني بالنص ما أظهره ﷺ بقوله أو فعله، وبالقياس المعنى المفهوم من ألفاظه وأفعاله. فإن لم يكن فيه نص ولم يستقم فيه قياس على منصوص، بطل القول بتحريمه وبقي فعلاً لا حرج فيه كسائر المباحات. ولا يدل على تحريم السماع نص ولا قياس، ويتضح ذلك في جوابنا عن أدلة المائلين إلى التحريم. ومهما تم الجواب عن أدلتهم كان ذلك مسلكاً كافياً في إثبات هذا الغرض، لكن نستفتح ونقول: قد دل النص والقياس جميعاً على إباحته.

أما القياس فهو أن الغناء اجتمعت فيه معان ينبغي أن يبحث عن أفرادها ثم عن مجموعها، فإن فيه سماع صوت طيب موزون مفهوم المعنى محرك للقلب، فالوصف الأعم أنه صوت طيب. ثم الطيب ينقسم إلى الموزون وغيره، والموزون ينقسم إلى المفهوم كالأشعار وإلى غير المفهوم كأصوات الجمادات وسائر الحيوانات.

أما سماع الصوت الطيب من حيث إنه طيب فلا ينبغي أن يحرم، بل هو حلال بالنصوالقياس. أما القياس فهو أنه يرجع إلى تلذذ حاسة السمع بإدراك ما هو مخصوص به، وللإنسان عقل وخمس حواس ولكل حاسة إدراك".

إن أبا حامد الغزالي يسوق مجموعة من الأدلة الشرعية والعقلية على إباحة فن السماع في الإسلام. ذلك أن الإسلام أباح الصوت الحسن، وقد فسر قوله تعالى:{يزيد في الخلق ما يشاء} بالصوت الحسن، ناسبا ذلك إلى المفسرين، وفي الحديث النبوي أيضا:"ما بعث الله نبياً إلا حسن الصوت".

يقول الغزالي:"وقال ﷺ:"لله أشد أذناً للرجل الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القينة لقينته". وفي الحديث في معرض المدح لداود عليه السلامأنه كان حسن الصوت في النياحة على نفسه، وفي تلاوة الزبور، حتى كان يجتمع الإنس والجن والوحوش والطير لسماع صوته". وقال ﷺ في مدح أبي موسى الأشعري "لقد أُعطي مزماراً من مزامير آل داود". وقول الله تعالى﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾ (لقمان ١٩) يدل بمفهومه على مدح الصوت الحسن".

ثم يقول الغزالي:"ولو جاز أن يقال: إنما أبيح ذلك بشرط أن يكون في القرآن، للزمه أن يحرم سماع صوت العندليب لأنه ليس من القرآن".

ويضرب مثلا بالأصوات الطيبة الموزونة، وهي أنواع، إما أن تخرج من جماد كصوت المزامير والأوتار وضرب والطبل وغيره، وإما أن تخرج من حنجرة حيوان، وذلك الحيوان إما إنسان أو غيره، كصوت العنادل والقمارى وذات السجع من الطيور.والأصل في الأصوات حناجر الحيوانات، وإنما وضعت المزامير على أصوات الحناجر وهو تشبيه للصنعة بالخلقة".

ويختم الغزالي رأيه في إباحة السماع بقوله:"فسماع هذه الأصوات يستحيل أن يحرم لكونها طيبة أو موزونة، فلا ذاهبٌ إلى تحريم صوت العندليب وسائر الطيور".

القلب والنفس

عالج الغزالي في كتاب الإحياء واحدة من القضايا الكبرى التي اضطربت فيها الفلسفات المعاصرة في الغرب، تلك الفلسفات التي تطرقت إلى مفهوم العقل، بعد عصر النهضة، وخلطت بين مختلف الوظائف ونسبتها إلى غريزة العقل وحدها، وهو ما أسقطها في تمجيد العقل والعقلانية إلى حد الغلو، بعد أن جعلت العقل آلة للإدراك والوعي والإيمان معا وفي وقت واحد.

يميز أبو حامد الغزالي في كتاب "إحياء علوم الدين" بين أربعة معان، النفس والروح والقلب والعقل، فهي معان مختلفة وعبارات متباينة فيما بينها، رغم أنها متقاربة. غير أن الغزالي يرى أن هذا التقارب في معاني تلك العبارات هو الذي أدى إلى الخطأ لدى الكثيرين في التمييز بينها، ومنهم كبار العلماء، وذلك بسبب الجهل كما يرى، فهو يقول: "اعلم أن هذه الأسماء الأربعة تستعمل في هذه الأبواب، ويقل في فحول العلماء من يحيط بهذه الأسامي، واختلاف معانيها وحدودها ومسمياتها، وأكثر الأغاليط منشؤها الجهل بمعنى هذه الأسامي، واشتراكها بين مسميات مختلفة، ونحن نشرح في معنى هذه الأسامي ما يتعلق بغرضنا".

تطلق كلمة القلب عند الغزالي على معنيين، المعنى الأول يدل على العضو الذي في يسار الصدر، والمعنى الثاني يدل على الإدراك. فالقلب الذي في صدر الإنسان حول قطعة لحكم صنوبرية الشكل، وهو لحم مخصوص في باطنه تجويف، وفي داخل ذلك التجويف دم أسود هو منبع الروح. وهذا العضو لا يهتم به الغزالي في كتابه، إذ يرى أنه يتعلق باختصاصات الأطباء ولا يتعلق بالأغراض الدينية، ثم يقول: "ونحن إذا أطلقنا لفظ القلب في هذا الكتاب، لم

نعن به ذلك، فإنه قطعة لحم لا قدر له، وهو من عالم الملك والشهادة، إذ تدركه البهائم بحاسة البصر فضلاً عن الآدميين".

إن ما يهم الغزالي هو المعنى الثاني لكلمة القلب، الذي يدل على حاسة الإدراك والتمييز، وهذا المعنى يعتبره الغزالي "لطيفة ربانية روحانية"، ويقول عنها بأنها "هي حقيقة الإنسان، وهو المدرك العالم العارف من الإنسان، وهو المخاطب والمعاقب والمعاتب والمطالب، ولها علاقة مع القلب الجسماني. وقد تحيرت عقول أكثر الخلق في إدراك وجه علاقته، فإن تعلقه به يضاهي تعلق الأعراض بالأجسام والأوصاف بالموصوفات، أو تعلق المستعمل للآلة بالآلة، أو تعلق المتمكن بالمكان".

فالقلب بهذا المعنى الثاني هو الذي يخاطبه الشرع، وبه يتعلق العقاب في الآخرة، لأنه أداة الوعي والإدراك والتمييز، وفي ذلك يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ (الأعراف ١٧٩).

يعد القلب عند أبي حامد الغزالي وعاء العلم والمعرفة، وهو سيد الأعضاء وقائدها، وعليه تنطبع سائر العلوم والمعارف، وفي هذا الإطار يقول الغزالي شارحا هذه المسألة: "اعلم أن محل العلم هو القلب، أعني اللطيفة المدبرة لجميع الجوارح، وهي المطاعة المخدومة من جميع الأعضاء، وهي بالإضافة إلى حقائق المعلومات كالمرآة بالإضافة إلى صور المتلونات. فكما أن للمتلون صورة، ومثال تلك الصورة ينطبع في المرآة ويحصل بها، كذلك لكل معلوم حقيقة، ولتلك الحقيقة صورة تنطبع في مرآة القلب، وتتضح فيها".

ويميز الغزالي، بأسلوب الفيلسوف هذه المرة، بين ثلاثة أمور مختلفة، الأمر الأول هو القلب، باعتباره آلة التمييز والإدراك، والأمر الثاني هو الأشياء في حد ذاتها كما هي في الواقع، أما الأمر الثالث فهو انعكاس تلك الأشياء في القلب، أي الوعي بها وفهمها وإدراكها.

ثم ينقل ذلك التمييز الثلاثي إلى الواقع، فيرى أن العالِم عبارة عن القلب، والشيء المعلوم عبارة عن حقائق الأشياء كما هي في الواقع، والعلم عبارة عن انعكاس ذلك المعلوم في مرآة القلب.

ويضرب الغزالي مثالا يقرب به هذه الصورة إلى القارئ، يتعلق بالسيف، فيقول إن السيف موجود واليد موجودة، ولكن اليد لم تمتد إلى السيف للقبض عليه، فعملية القبض غير موجودة، رغم وجود السيف واليد، ثم يقول: "وقد كانت الحقيقة موجودة والقلب موجودا، ولم يكن العلم حاصلاً، لأن العلم عبارة عن وصول الحقيقة إلى القلب، كما أن السيف موجود واليد موجودة، ولم يكن اسم القبض والأخذ حاصلاً، لعدم وقوع السيف في اليد".

والعبارة الثانية عند الغزالي هي الروح، وهي أيضا تطلق على معنيين، المعنى الأول يتعلق بالجسم اللطيف غير المرئي الذي يوجد في تجويف القلب الجسماني، كما سبقت الإشارة، ويعرفها بأنها "بخار لطيف أنضجته حرارة القلب". ويشبه هذه الروح بالنور، والقلب بالسراج، فكما ينبعث النور من السراج كذلك تنبعث الروح من القلب، وهي التي تعطي الحياة لسائر أعضاء الجسم وتحركها. وإذا فارقت هذه الروح جسد الإنسان انتهت أنوار الإحساسات والقدر والإرادات وسائر ما يجمعها لفظ الحياة.

والغزالي يرى أن كلمة الروح تطلق على معان كثيرة، حيث يقول: "فإن الروح يطلق لمعان كثيرة لا نطول بذكرها نحن، إنما وصفنا من جملتها جسماً لطيفاً تسميه الأطباء روحاً، وقد عرّفوا صفته ووجوده وكيفية سريانه في الأعضاء، وكيفية حصول الإحساس والقوى في الأعضاء به، حتى إذا خدر بعض الأعضاء علموا أن ذلك لوقوع سدة في مجرى هذا الروح، فلا يعالجون موضع الخدر بل منابت الأعصاب ومواقع السدة فيها".

هـذا بالنسـبة للمعنـى الأول للـروح، أمـا المعنـى الثـاني فهـو بعبـارة الغـزالي "اللطيفـة العالمـة المدركـة مـن الإنسـان، وهـو الـذي شرحنـاه في أحـد معـاني القلب، وهـو الـذي أراده الله تعـالى بقولـه قـل الـروح مـن أمـر ربي وهـو أمـر عجيـب ربـاني تعجـز أكثـر العقـول والأفهـام عـن درك حقيقتـه".

اللفـظ الثالـث هـو النفـس، وهـو أيضـا مشـترك بـين معـان، ولكـن مـا يهـم الغـزالي منهـا معنيـان فقـط، الأول يتعلـق بقـوة الغضـب والشـهوة في الإنسـان، وهذا الاسـتعمال حسـب الغـزالي هـو الغالـب عـلى أهل التصـوف "لأنهـم يريـدون بالنفس الأصـل الجامـع للصفـات المذمومـة من الإنسـان، فيقولـون لا بـد من مجاهـدة النفس وكسرهـا. وإليـه الإشـارة بقولـه ﷺ "أعـدى عـدوك نفسـك التـي بـين جنبيـك".

أمـا المعنـى الثـاني فيتعلـق بهويـة الإنسـان وحقيقتـه، وهـي نفـس الإنسـان وذاتـه، ولكنهـا توصـف بأوصـاف مختلفـة بحسـب اختـلاف أحوالهـا، فـإذا سـكنت تحـت الأمـر وزايلهـا الاضطـراب بسـبب معارضـة الشـهوات سـميت النفـس المطمئنـة، قـال الله تعـالى في مثلهـا {يـا أيتهـا النفـس المطمئنـة ارجعـي إلى ربـك راضيـة مرضيـة} (الفجـر ٢٧)، والنفـس بالمعنـى الأول عنـد الغـزالي لا يُتصـور رجوعهـا إلى الله تعـالى، فإنهـا مُبعـدة عـن الله وهـي مـن حـزب الشـيطان.

وهـذه النفـس إذا لم يتـم سـكونها، ولكنهـا صـارت مدافعـة للنفـس الشـهوانية ومعترضـة عليهـا، سـميت النفـس اللوامـة، لأنهـا تلـوم صاحبهـا عنـد تقصـيره في عبـادة مـولاه، قـال الله تعـالى ﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ (القيامـة ٢).

وإن تركـت الاعـتراض وأذعنـت وأطاعـت لمقتـضى الشـهوات ودواعـي الشـيطان سـميت النفـس الأمـارة بالسـوء، قـال الله تعـالى إخبـاراً عـن يوسـف عليه السلام أو امـرأة العزيـز ﴿۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ (يوسـف ٥٣).

فالنفـس بالمعنـى الأول عنـد الغـزالي مذمومـة، أمـا بالمعنـى الثـاني فهـي محمـودة لأنهـا نفـس الإنسـان وحقيقتـه العارفـة بـالله تعـالى والمدركـة لجميـع المعلومـات.

وأخيرا نصل إلى العبارة الرابعة في هذا الترتيب الوارد عند أبي حامد الغزالي، وهذه العبارة هي العقل. فالعقل كلمة لها دلالات ومعان متعددة.

أحدهما أنه قد يطلق ويراد به العلم بحقائق الأمور، فيكون عبارة عن صفة العلم الذي محله القلب.

والثاني أنه قد يطلق ويراد به المدرك للعلوم، فيكون هو القلب، أي وظيفة الإدراك.

فالعقل عند الغزالي قد يطلق ويراد به صفة العالم، وقد يطلق ويراد به محل الإدراك، وهو المراد بقوله ﷺ "أول ما خلق الله العقل".

ووظيفة العقل هي النصح والتوجيه، إذ يقول الغزالي "فالعقل مثاله مثال الناصح المشير". وفي هذا الباب ما رواه عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: "ما اكتسب رجل مثل فضل عقل يهدي صاحبه إلى هدى، ويرده عن ردى، وما تم إيمان عبد ولا استقام دينه حتى يكمل عقله". وقال ﷺ: "إن الرجل ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم، ولا يتم لرجل حسن خلقه حتى يتم عقله".

ولكن العقل ليس له مكان محدد عند الغزالي، فليس هو القلب أو النفس أو الروح، لأن النفس والروح محلهما القلب، أما العقل فلا محل له، فهو شيء باطن في الإنسان، وهو يستمر في الحياة حتى لو مات الإنسان أو انقسم إلى أشلاء، لذلك يقول: "ليس العقل المدرك هذه الأعضاء، بل هو شيء باطن ليس له طول ولا عرض، بل الذي لا ينقسم في نفسه هو المدرك للأشياء، ولو تناثرت أعضاء الإنسان كلها ولم يبق إلا الجزء المدرك الذى لا يتجزأ ولا ينقسم، لكان الإنسان العاقل بكماله قائما باقيا. وهو كذلك بعد الموت، فإن ذلك الجزء لا يحله الموت ولا يطرأ عليه العدم".

حسن الخلق

لقد اهتمت مختلف الحضارات الإنسانية بقضية الأخلاق اهتماما خاصا، لأنها المحور الذي يدور عليه المجتمع والعلاقات الإنسانية بين أفراده. وقد أجمعت جميع الأديان السماوية والوضعية على إعطاء الأخلاق اهتماما مركزيا، بل هي جاءت بهدف تهذيب أخلاق الإنسان وتمييزه عن الحيوان الذي يتصرف بشكل غريزي دون تفكير أو انضباط لشبكة معينة من القيم والسلوكيات. ونظرا لهذه القيمة الكبرى للأخلاق ظهرت الفلسفة الخلقية أو فلسفة الأخلاق في الفلسفة منذ اليونان حتى العصر الحديث، وهي فلسفة تهتم بقيم الخير والعدل والتعاون والمحبة والحق وغيرها من القيم الإيجابية التي يقوم عليها أي مجتمع من المجتمعات.

يعتبر أبو حامد الغزالي أن الأخلاق هي ما يميز الإنسان عن غيره من المخلوقات، فإذا كان الله سبحانه قد أحسن خلق الإنسان فقد وضع له الشرائع لتحسين خُلُقه أيضا، لأن مهمة تلك الشرائع هي تنبيهه إلى الخير لطلبه، وإلى الشر لتجنبه.

وفي هذا الإطار خصص الغزالي في كتاب "إحياء علوم الدين" بابا عن الأخلاق والقيم والفضيلة سماه "كِتَابُ رِيَاضَةِ النَّفْسِ وَتَهْذِيبِ الْأَخْلَاقِ وَمُعَالَجَةِ أَمْرَاضِ القلب"، وقد وضع هذا الباب ضمن مجال المهلكات في الكتاب. وكما هي عادة هذا العالم الصوفي فإنه استهل هذا الباب بإشارة عامة إلى الأخلاق جاء فيها: "الحمد لله الذي صرف الأمور بتدبيره، وعدل تركيب الخلق فأحسن في تصويره وزين صورة الإنسان بحسن تقويمه وتقديره، وحرسه من الزيادة والنقصان في شكله ومقاديره، وَفَوَّضَ تَحْسِينَ الْأَخْلَاقِ إِلَى اجْتِهَادِ الْعَبْدِ

وَتَشْمِيرِهِ، وَاسْتَحَثَّهُ عَلَى تَهْذِيبِهَا بِتَخْوِيفِهِ وَتَحْذِيرِهِ، وَسَهَّلَ عَلَى خواص عباده تهذيب الأخلاق بتوفيقه وتيسيره، وامتن عليهم بتسهيل صعبه وعسيره".

وذكر الغزالي أن حسن الخلق من صفات النبي ﷺ، فقال: "فالخلق الحسن صفة سيد المرسلين وأفضل أعمال الصديقين، وهو على التحقيق شطر الدين وثمرة مجاهدة المتقين ورياضة المتعبدين. والأخلاق السيئة هي السموم القاتلة والمهلكات الدامغة والمخازي الفاضحة والرذائل الواضحة والخبائث المبعدة عن جوار رب العالمين، المنخرطة بصاحبها في سلك الشياطين، وهي الأبواب المفتوحة إلى نار الله تعالى الموقدة التي تطلع على الأفئدة، كما أن الأخلاق الجميلة هي الأبواب المفتوحة من القلب إلى نعيم الجنان وجوار الرحمن، والأخلاق الخبيثة أمراض القلوب وأسقام النفوس".

ينظر الغزالي إلى الأخلاق بوصفها رياضة للنفس والروح، ويرى أنها طي القلوب والنفوس، بدونه تتعرض النفوس للأمراض. فإذا كان طب الأبدان يعالج أمراض الظاهر فإن طب القلوب يعالج أمراض الباطن. ولكنه يرى أن علاج النفوس أهم من علاج الأجساد، لأن الجسد مهما عاش لا بد أن يشيخ وينتهي ويموت، أما النفوس فهي تبقى مع الإنسان إلى الآخرة.

يقول الغزالي شارحا هذه النقطة: "ومهما اشتدت عناية الأطباء بضبط قوانين العلاج للأبدان وليس في مرضها إلا فوت الحياة الفانية، فالعناية بضبط قوانين العلاج لأمراض القلوب وفي مرضها فوت حياة باقية أولى، وهذا النوع من الطب واجب تعلمه على كل ذي لب، إذ لا يخلو قلب من القلوب عن أسقام لو أهملت تراكمت وترادفت العلل وتظاهرت، فيحتاج العبد إلى تأنق في معرفة علمها وأسبابها، ثم إلى تشمير في علاجها وإصلاحها، فمعالجتها هو المراد بقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩﴾ (الشمس ٩)، وإهمالها هو المراد بقوله: ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ (الشمس ١٠).

ولكي يفسر الغزالي مقصوده من طب القلوب، حتى تفهمه العامة ويقربه إلى العقول، فإنه يستعين بطب الأبدان، وفي هذا يقول: "ونحن نذكر ذلك ونجعل علاج البدن مثالاً له ليقرب من الأفهام دركه، ويتضح ذلك ببيان فضيلة حسن الخلق، ثم بيان حقيقة حسن الخلق، ثم بيان قبول الأخلاق للتغير بالرياضة، ثم بَيَانُ السَّبَبِ الَّذِي بِهِ يُنَالُ حُسْنُ الْخُلُقِ، ثم بيان الطرق التي بها يعرف تفصيل الطرق إلى تهذيب الأخلاق ورياضة النفوس، ثم بيان العلامات التي بها يعرف مرض القلب، ثم بيان الطرق التي بها يعرف الإنسان عيوب نفسه".

إن الأخلاق عند الغزالي لا تخرج عن الخصال التي مدحها الشرع وألح عليها، وهي الخصال المطلوبة لكي يكون الفرد إنسانا سويا يتفوق على الحيوان. ولذلك نراه يرجع حسن الخلق إلى اعتدال قوة العقل وكمال الحكمة، واعْتِدَالِ قُوَّةِ الْغَضَبِ وَالشَّهْوَةِ، وأن تكون هذه القوة خاضعة للعقل والشرع.

ونفهم من هذا أن الغزالي لا يرفض الغضب أو الشهوة رفضا مطلقا، لأنهما من الخصائص التي تطبع الإنسان، ولكنه يدعو إلى الاعتدال فيهما، فلولا الغضب مثلا ما كان هناك الدفاع عن النفس أو الوطن، ولولا الشهوة ما كانت الحاجة إلى الزواج والإنجاب، وهكذا.

والاعتدال في الأخلاق عند الغزالي يحصل بوجهين: " أحدهما بجود إلهي وكمال فطري، بحيث يخلق الإنسان ويولد كامل العقل حسن الخلق، قد كُفي سلطان الشهوة والغضب، بل خلقتا معتدلتين منقادتين للعقل والشرع، فيصير عالما بغير تعليم ومؤدبا بغير تأديب، كعيسى بن مريم ويحيى بن زكريا عليهما السلام، وكذا سائر الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين".

أما الْوَجْهُ الثَّانِي فيحصل عند الغزالي" بالمجاهدة والرياضة، وأعني به حمل النفس على الأعمال التي يقتضيها الخلق المطلوب، فمن أراد مثلا أن يحصل

لنفسه خلق الجود فطريقه أن يتكلف تعاطي فعل الجواد، وهو بذل المال، فلا يزال يطالب نفسه ويواظب عليه تكلفا مجاهدا نفسه فيه حتى يصير ذلك طبعا له ويتيسر عليه، فيصير به جوادا".

إن كل خلق لدى الإنسان هو خلق مطلوب إذا كان وفقا للاعتدال والوسطية، بعيدا عن التشدد والتطرف. فقوة الغضب مطلوبة إذا كانت وفق ميزان الاعتدال، أما إذا مالت عن الاعتدال فإنها تصبح تهورا، وإذا مالت إلى الجانب الآخر وهو جانب الضعف أصبحت جبنا. وكذلك الشهوة، فإنها إذا مالت إلى طرف الزيادة فيها صارت تسمى شرها، وإذا مالت إلى النقصان صارت تسمى جمودا. فالمحمود من الأخلاق عند الغزالي هو الوسط والاعتدال، أما الطرفان القصيان فهما رذيلتان مذمومتان، والحكمة في الوسط.

يقول الغزالي:"والمحمود هو الوسط، وهو الفضيلة، والطرفان رذيلتان مذمومتان، والعدل إذا فات فليس له طرفا زيادة ونقصان، بل له ضد واحد ومقابل وهو الجور. وأما الحكمة فيسمى إفراطها عند الاستعمال في الأغراض الفاسدة خبثاً، ويسمى تفريطها بَلهاً، والوسط هو الذي يختص باسم الحكمة".

وترجع الأخلاق الكبرى، أو أمهات الأخلاق كما يسميها الغزالي، إلى أربعة أصول هي: الْحِكْمَةُ وَالشَّجَاعَةُ وَالْعِفَّةُ وَالْعَدْلُ، ويعني بالحكمة حَالَةً لِلنَّفْسِ بِهَا يدرك بها الإنسان الصواب في جميع أفعاله التي يقوم بها بإرادته. أما العدل فهو حالة للنفس تتحكم في الغضب والشهوة وتقوم بضبطهما.

ثم يقول الغزالي :"فَمِنِ اعْتِدَالِ هَذِهِ الْأُصُولِ الأربعة تصدر الأخلاق الجميلة كلها".

وهو يرى أيضا أن اعتدال قوة العقل يؤدي إلى حسن التدبير وقوة الرأي والفطنة، أما إذا مالت قوة العقل عن الاعتدال والإفراط فإنها تؤدي إلى المكر والخداع والدهاء.

تعني الرياضة على الأخلاق الحسنة عند الغزالي تدريب النفس على العادات الطيبة والفضائل الإنسانية. فكما يتم تدريب الجسد بالرياضة البدنية لكي يصير قويا، كذلك يتم تدريب النفس لكي تصير فاضلة. والهدف من هذه الرياضة هو تحويل القيم الأخلاقية إلى قيم مقبولة لدى الإنسان، بحيث لا ينظر إليها كأخلاق مفروضة عليه من الخارج، بقوة الشرع أو القانون، بل تكون أخلاقا صادرة عنه تلقائيا بشكل طبيعي، وذلك لا يحصل إلا بالتدريب والمواظبة والاستمرار على التحلي بالأخلاق الحسنة والتخلي عن الأخلاق السيئة، فهي أخلاق فعل وأخلاق ترك.

يقول الغزالي: "وجميع الأخلاق المحمودة شرعا تحصل بهذا الطريق، وغايته أن يصير الفعل الصادر منه لذيذان فالسخي هو الذي يستلذ بذل المال الذي يبذله دون الذي يبذله عن كراهة، والمتواضع هو الذي يستلذ التواضع، ولن ترسخ الأخلاق الدينية في النفس ما لم تتعود النفس جميع العادات الحسنة، وما لم تترك جميع الأفعال السيئة، وما لم تواظب عليه مواظبة من يشتاق إلى الأفعال الجميلة ويتنعم بها ويكره الأفعال القبيحة ويتألم بها".

ولكن هذه الرياضة لا تكون في أوقات محددة فقط وتنتهي، بل يجب أن تكون طيلة العمر، حيث يقول الغزالي: " ثم لا يكن في نيل السعادة الموعودة على حسن الخلق استلذاذ الطاعة واستكراه المعصية في زمان دون زمان، بل ينبغي أن يكون ذلك على الدوام وفي جملة العمر، وكلما كان العمر أطول كانت الفضيلة أرسخ وأكمل، ولذلك لما سئل ﷺ عن السعادة قال: "طول العمر في طاعة الله تعالى".

تأديب الصبيان

لقد اهتم أبو حامد الغزالي بالتربية والتعليم والتأديب كثيرا، بل يعد أهم عالم من علماء الإسلام أعطى للتعليم والتربية هذا الاهتمام، وذلك بسبب انصرافه إلى موضوع التربية الصوفية بشكل عام، التي تهتم بالكبار والصغار، وتركيزه على فقه السلوك أو ما يسميه طب القلوب. فقد ركز في مشروعه الفكري والفلسفي على النظر في النفس الإنسانية، وطبيعة الغرائز وكيفية السمو بها في مدارج الإصلاح والتهذيب. وبالإضافة إلى هذه الدوافع الشخصية، هناك دوافع أخرى موضوعية، ترجع إلى طبيعة المهنة التي مارسها الغزالي فترة طويلة من حياته، وهي مهنة التعليم، إذ كان معلما في المدارس النظامية في بغداد، حيث نشطت المدارس والكليات، فكانت هذه التجربة الشخصية رافدا من روافد الفلسفة التربوية لديه.

يعد تأديب الصبيان عند أبي حامد الغزالي جزء من المشروع التربوي العام لديه، ولذلك إنه نظر إلى هذه القضية على أنها تندرج ضمن إطار الرياضة الروحية والمجاهدة النفسية، لأن التربية عند الغزالي ليست سوى رياضة مستمرة وصعود متدرج في سلم الترقية الروحية بشكل تدريجي، يبدأ من الصفر ويرتقي خطوة خطوة حتى يصل المرء إلى مرحلة الإنسان الكامل، بالمعنى الصوفي، أي الإنسان الذي يتخلى عن مساوئ الأخلاق، ويتحلى بفضائلها، ويجعل دنياه طريقا إلى آخرته.

فحين يتحدث عن تجارب بعض الأشخاص الذين طوعوا نفوسهم للخير، وصفّوها من المساوئ والشرور، يعلق قائلا: "فَهَذِهِ نُفُوسٌ قَدْ ذُلِّلَتْ بِالرِّيَاضَةِ، فَاعْتَدَلَتْ أَخْلَاقُهَا، وَنُقِّيَتْ مِنَ الْغِشِّ وَالْغِلِّ وَالْحِقْدِ بَوَاطِنُهَا، فَأَثْمَرَتِ الرِّضَا

بِكُلِّ مَا قَدَّرَهُ اللهُ تَعَالَى، وَهُوَ منتهى حسن الخلق".

والغزالي يرى أن التأديب والتربية لا بد أن تظهر علاماتهما على الفرد، وذلك بالرضا بما قسم له من الله سبحانه، لأن الرضا هو السعادة الحقيقية التي تجعل الإنسان يعيش في حالة من المصالحة مع واقعه دون تذمر أو شكوى، بل يفوض أمره إلى الله في كل شيء. ولذلك يقول: "فإن من يكره فعل الله تعالى ولا يرضى به فهو غاية سوء خلقه، فهؤلاء ظهرت العلامات على ظواهرهم كما ذكرناه".

وينصح الغزالي الإنسان بالنظر في نفسه، ومراقبة سلوكه لملاحظه مدى تقدمه في مدارج التربية، حتى تظهر له العلامات، فيقول: "فَمَنْ لَمْ يُصَادِفْ مِنْ نَفْسِهِ هَذِهِ الْعَلَامَاتِ فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَغْتَرَّ بِنَفْسِهِ فَيَظُنَّ بِهَا حُسْنَ الْخُلُقِ، بَلْ يَنْبَغِي أَنْ يَشْتَغِلَ بِالرِّيَاضَةِ وَالْمُجَاهَدَةِ إِلَى أَنْ يَبْلُغَ دَرَجَةَ حُسْنِ الْخُلُقِ، فَإِنَّهَا دَرَجَةٌ رَفِيعَةٌ لَا يَنَالُهَا إِلَّا الْمُقَرَّبُونَ وَالصِّدِّيقُونَ".

من أهم الأمور عند الغزالي تربية الصبيان وتأديبهم منذ نعومة أظفارهم، لأن التعليم في الصغر كالنقش على الحجر كما يقول المثل المعروف. فالغزالي يرى أن الطفل صفحة بيضاء ليس فيها نقش، والمربي هو الذي ينقش عليها ما يريد منذ البداية، لأنه قابل لكل نقش ولذلك يسمي الطفل "الجوهرة النفيسة". يقول: " اعلم أن الطريق في رياضة الصبيان من أهم الأمور وأوكدها، والصبيان أمانة عند والديه، وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة خالية عن كل نقش وصورة، وهو قابل لكل ما نقش ومائل إلى كل ما يمال به إليه، فإن عُود الخير وعُلمه نشأ عليه وسعد في الدنيا والآخرة، وشاركه في ثوابه أبوه وكل معلم له ومؤدب، وإن عُود الشر وأهمل إهمال البهائم شقي وهلك، وكان الوزر في رقبة القيم عليه والوالي له، وقد قال الله عز وجل: "يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا". ومهما كان الأب يصونه عن نار

الدنيا فبأن يصونه عن نار الآخرة أولى، وصيانته بأن يؤدبه ويهذبه ويعلمه محاسن الأخلاق ويحفظه من القرناء السوء، ولا يعوده التنعم ولا يحبب إليه الزينة والرفاهية، فيضيع عمره في طلبها إذا كبر فيهلك هلاك الأبد، بل ينبغي أن يراقبه من أول أمره، فلا يستعمل في حضانته وإرضاعه إلا امرأة متدينة تأكل الحلال، فإن اللبن الحاصل من الحرام لا بركة فيه، فإذا وقع عليه نُشوّ الصبي انعجنت طينته من الخبيث، فيميل طبعه إلى ما يناسب الخبائث".

لقد وضع الغزالي منهجا تربويا علميا لتربية الأطفال، ينطلق من الملاحظة الواقعية والمراقبة. فهو ينصح الآباء والمعلمين بمراقبة الطفل منذ نشأته الأولى، والاطلاع على سلوكه وتصرفاته لمعرفة ميوله، من أجل تطوير مهاراته. وأول ما ينبغي أن يتربى عليه الطفل هو القيم الأخلاقية النبيلة، مثل الحياء الذي يدل عند الغزالي على النمو العقلي عند الطفل، لأنه يعني بداية التمييز، والأدب في الطعام أو آداب الأكل. وفي هذا يقول عن دور الأب في تربية الإبن:" ومهما رأى فيه مخايل التمييز فينبغي أن يحسن مراقبته، وأول ذلك ظهور أوائل الحياء، فإنه إذا كان يحتشم ويستحي ويترك بعض الأفعال فليس ذلك إلا لإشراق نور العقل عليه، حتى يرى بعض الأشياء قبيحا ومخالفا للبعض، فصار يستحيي من شيء دون شيء، وهذه هدية من الله تعالى إليه وبشارة تدل على اعتدال الأخلاق وصفاء القلب، وهو مبشَّر بكمال العقل عند البلوغ. فالصبي المستحيي لا ينبغي أن يُهمل بل يستعان على تأديبه بحيائه أو تمييزه، وأول ما يغلب عليه من الصفات شَره الطعام، فينبغي أن يؤدب فيه مثل أن لا يأخذ الطعام إلا بيمينه، وأن يقول عليه بسم الله عند أخذه، وأن يأكل مما يليه، وأن لا يبادر إلى الطعام قبل غيره، وأن لا يحدق النظر إليه ولا إلى من يأكل، وأن لا يسرع في الأكل وأن يجيد المضغ". وقد جمع الغزالي في هذه الفقرة عددا من الفوائد الأخلاقية والنفسية والصحية أيضا، عندما ذكر الشره إلى الطعام وعدم الإسراع في الأجل وجودة المضغ.

إن البيت بالنسبة للغزالي هو المدرسة الأولى التي يتعلم فيها الطفل الدروس الأولى في الحياة، فهو المرحلة الأولى قبل ولوج المدرسة، التي يسميها "المكتب". فبعد مرحلة البيت التي يتلقى فيها الطفل الآداب العامة مع الناس، ينتقل إلى المرحلة الثانية، مرحلة المدرسة، لكي يتلقى أبجديات العلوم. وأول العلوم التي يجب أن يتعلمها هي القرآن الكريم والحديث النبوي وأخبار الناس الصالحين، لتنغرس في نفسه القيم النبيلة، قبل التدرج في المعرفة.

لذلك يقول الغزالي شارحا معالم هذه المرحلة الثانية: "ثُمَّ يَشْتَغِلُ فِي الْمُكْتَبِ، فَيَتَعَلَّمُ الْقُرْآنَ وَأَحَادِيثَ الأخبار، وَحِكَايَاتِ الْأَبْرَارِ وَأَحْوَالَهُمْ، لِيَنْغَرِسَ فِي نَفْسِهِ حُبُّ الصالحين".

والغزالي يوجه الآباء والمعلمين إلى مسألة مهمة في التشجيع على التعلم والتحلي بالأخلاق الفاضلة، وهي إعطاء الطفل هدية كلما ظهر منه خلق حسن، أو فعل محمود، وأما إذا ظهر منه عمل غير محمود فينبغي ستر الطفل وعدم فضحه في المرة الأولى، وإذا تكرر ذلك الفعل ينبغي معاتبه سرا دون مكاشفة أمام الآخرين، على أن لا يكون العتاب قويا حتى لا ينكسر الصبي نفسيا.

يقول الغزالي: " مهما ظهر من الصبي خلق جميل وفعل محمود، فينبغي أن يكرم عليه ويجازى عليه بما يفرح به، ويمدح بين أظهر الناس، فإن خالف ذلك في بعض الأحوال مرة واحدة فينبغي أن يتغافل عنه، ولا يهتك ستره ولا يكاشفه ولا يظهر له أنه يتصور أن يتجاسر أحد على مثله، ولا سيما إذا ستره الصبي واجتهد في إخفائه".

ثم إن الغزالي ينصح بعدم تحبيب الذهب والفضة إلى الصبيان، لأنهما يعلمان الطمع حتى بالنسبة لكبار السن. ويعطي توجيهات تربوية محددة للصبيان، كعدم البصق في المجالس، وعدم التثاؤب أمام الناس، وعدم الجلوس بطريقة غير محترمة، وعدم القيام بحركات مخالفة للأدب، حيث يقول:" وبالجملة

يقبح إلى الصبيان حب الذهب والفضة والطمع فيهما، ويحذر منهما أكثر مما يحذر من الحيات والعقارب، فإن آفة حب الذهب والفضة والطمع فيهما أضر من آفة السموم على الصبيان، بل على الأكابر أيضا، وينبغي أن يُعود أن لا يبصق في مجلسه ولا يمتخط ولا يتثاءب بحضرة غيره، ولا يستدبر غيره، ولا يضع رجلا على رجل، ولا يضع كفه تحت ذقنه، ولا يعمد رأسه بساعده، فإن ذلك دليل الكسل، ويعلم كيفية الجلوس ويمنع كثرة الكلام، ويبين له أن ذلك يدل على الوقاحة وأنه فعل أبناء اللئام، ويمنع اليمينَ رأسا صادقا كان أو كاذبا، حتى لا يعتاد ذلك في الصغر، ويمنع أن يبتديء بالكلام، ويعود أن لا يتكلم إلا جوابا وبقدر السؤال، وأن يحسن الاستماع مهما تكلم غيره ممن هو أكبر منه سنا، وأن يقوم لمن فوقه ويوسع له المكان ويجلس بين يديه، ويمنع من لغو الكلام وفحشه، ومن اللعن والسب، ومن مخالطة من يجري على لسانه شيء من ذلك، فإن ذلك يسري لا محالة من القُرناء السوء، وأصل تأديب الصبيان الحفظ من قرناء السوء وينبغي إذا ضربه المعلم أن لا يكثر الصراخ والشغب، ولا يستشفع بأحد بل يصبر، ويذكر له أن ذلك دأب الشجعان والرجال، وأن كثرة الصراخ دأب المماليك والنسوان".

الجوع والشبع

لقد تكلم أهل التربية والتصوف والسلوك كثيرا عند فوائد الجوع ومضار الشبع، وتحدثوا عن فضيلة الصيام الذي عرفوه بأنه صيام البطن والقلب، كما مدحوا التقلل من الطعام لأن البدن إذا ثقُل ثقلت النفس أيضا عن العبادة، فكلما خف البدن كانت النفس أكثر قدرة على أداء العبادات. وفي هذا يقول علي بن أبي طالب ﷺ "من شبع عوقب في الحال ثلاث عقوبات: يُلقى الغشاء على قلبه، والنعاس في عينه، والكسل على بدنه". وقال أحد الصوفية: "كثرة الطعام تميت القلب كما تميت كثرة الماء الزرع، فلا تطلب الحياة لتأكل، بل بلاطلب الأكل لتحيا، ولا تجلس إلى الطعام إلا وأنت جائع، ولا تقم منه إلا وأنت تشتهيه".

وقد خصص أبو حامد الغزالي في كتاب "إحياء علوم الدين" بابا سماه "بيان فوائد الجوع وآفات الشبع"، أثنى فيه على كثرة الجوع وعدم الشبع لما في ذلك من الأجر العظيم للمؤمن إذا كان يريد بذلك التفرغ للعبادة. فقد اعتبر الغزالي أن الشبع ليس فيه من المنافع شيء، اللهم إيلام المعدة ومعاناة التعب والأذى، وقال: "لا يقف على علة نفع الجوع إلا سماسرة العلماء(يعني العلماء العارفون)، ومن جوّع نفسه مصدقاً لما جاء في الشرع من مدح الجوع انتفع به، وإن لم يعرف علة المنفعة، كما أن من شرب الدواء انتفع به وإن لم يعلم وجه كونه نافعاً".

وذكر الغزالي أن الجوع فيه عشر فوائد.

الفائدة الأولى صفاء القلب وإيقاد القريحة وإنفاذ البصيرة، فإن الشبع يورث البلادة ويعمي القلب ويكثر البخار في الدماغ. فالشبع يجعل القلب ثقيلا بحيث لا يستطيع الغوص في الأفكار والتدبر في الأشياء، ويعطل سرعة الإدراك

عند الإنسان. ويرى أنه بحكم التجربة فإن الصبي الذي يشبع لا يستطيع الحفظ بل يفسد ذهنه ويصاب بالكسل. أما الجوع إنه يجعل الناس ذليلة خاضعة، ويرقق القلب، ويورث العلم السماوي، كما يقول الغزالي، ويعني بها البركة في العلم، مستشهدا بقول النبي ﷺ:" أحيوا قلوبكم بقلة الضحك وقلة الشبع، وطهروها بالجوع تصفو وترق".

يوضح أبو حامد الغزالي أن الغاية من العبادات بالنسبة للمسلم هو الوصول إلى المعرفة والاستبصار بحقائق الحق، لأن هدف العبادة هو التفكر. كما يوضح بأن الجوع يفتح باب الفكر والمعرفة، والمعرفة باب من أبواب الجنة، مستدلا بقول لقمان لابنه:"يا بني، إذا امتلأت المعدة نامت الفكرة، وخرست الحكمة، وقعدت الأعضاء عن العبادة"، وقول أبي يزيد البسطامي:" الجوع سحاب، فإذا جاع العبد أمطر القلب الحكمة".

وحذر الغزالي من آفة الشبع، واستدل في ذلك بقول أبي سليمان الداراني الذي قال فيه إن الجوع فيه ست آفات:"من شبع دخل عليه ست آفات، فقد حلاوة المناجاة، وتعذر حفظ الحكمة وحرمان الشفقة على الخلق، لأنه إذا شبع ظن أن الخلق كلهم شباع، وثِقل العبادة وزيادة الشهوات، وأن سائر المؤمنين يدورون حول المساجد والشباع يدورون حول المزابل".

وينصح الغزالي بالاعتدال والتوسط بين الجوع والشبع، لأن الجوع مضر والشبع أيضا مضر، فيقول:"فإن مقصود الأكل بقاء الحياة وقوة العبادة، وثقل المعدة يمنع من العبادة ،وألم الجوع أيضاً يشغل القلب ويمنع منها، فالمقصود أن يأكل أكلا لا يبقى للمأكول فيه أثر، ليكون متشبهاً بالملائكة، فإنهم مقدسون عن ثقل الطعام وألم الجوع، وغاية الإنسان الاقتداء بهم، وإذا لم يكن للإنسان خلاص من الشبع والجوع فأبعد الأحوال عن الطرفين الوسط وهو الاعتدال".

ومن فوائد الجوع أيضا عند الغزالي أن قلة الأكل تؤدي إلى صحة البدن ودفع الأمراض، لأن سبب الأمراض هو الأكل وملء المعدة، مما يؤدي إلى وجود الأخلاط فيها، والمرض يمنع من العبادات لأنه ينهك الجسم ويشوش على القلب ويمنع من التذكر وينغص الحياة على المرء.

ويحكي الغزالي حكاية عن هارون الرشيد، تقول إن الرشيد جمع أربعة أطباء، هندي وروميي وعراقي وسوادي، وقال: ليصف كل واحد منكم الدواء الذي لا داء فيه. فقال الهندي: الدواء الذي لا داء فيه عندي هو الإهليلج الأسود. وقال العراقي: هو حب الرشاد الأبيض. وقال الرومي: هو عندي الماء الحار. وقال السوادي وكان أعلمهم: الإهليلج يعفص المعدة، وهذا داء، وحب الرشاد يزلق المعدة وهذا داء، والماء الحار يرخي المعدة وهذا داء. قالوا: فما عندك؟ فقال: الدواء الذي لا داء معه عندي أن لا تأكل الطعام حتى تشتهيه، وأن ترفع يدك عنه وأنت تشتهيه. فقالوا: صدقت.

وقد ذكر الغزالي أن الصحة البدنية والنفسية توجد في الحديث النبوي الذي يقول: "ثلث للطعام وثلث للشراب وثلث للنفَس"، وحديث النبي ﷺ: "صوموا تصحوا". ثم علق قائلا: "ففي الصوم والجوع وتقليل الطعام صحة الأجسام وصحة القلوب من سقم الطغيان والبطر وغيرهما".

ومن الفوائد الأخرى للجوع أيضا أن تقليل الأكل يؤدي إلى تقليل الإنفاق من المال، بينما الشبع يؤدي إلى الإقبال على الدنيا، وكثرة الإقبال على الدنيا تؤدي إلى البحث عن الحرام لسد الحاجات الزائدة، وقال الغزالي إن الإنسان الذي يفضل الشبع على الجوع: "ربما يحتاج إلى أن يمد أعين الطمع إلى الناس، وهو غاية الذل والقماءة، والمؤمن خفيف المؤنة. وقال بعض الحكماء: "إني لأقضي عامة حوائجي بالترك، فيكون ذلك أروح لقلبي".

ويضيف الغزالي قائلا: "وبالجملة،سبب هلاك الناس حرصهم على الدنيا، وسبب حرصهم على الدنيا البطن والفرج، وسبب شهوة الفرج شهوة البطن، وفي تقليل الأكل ما يحسم هذه الأحوال كلها، وهي أبواب النار، وفي حسمها فتح أبواب الجنة، كما قال ﷺ: "أديموا قرع باب الجنة بالجوع". فمن قنع برغيف في كل يوم قنع في سائر الشهوات أيضاً، وصار حراً واستغنى عن الناس واستراح من التعب، وتخلى لعبادة الله عز وجل وتجارة الآخرة، فيكون من الذين ﴿لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [النور:٣٧]، وإنما لا تلهيهم لاستغنائهم عنها بالقناعة وأما المحتاج فتلهيه لا محالة".

ويوضح الغزالي مقصوده الأخير من الجوع، وفائدته في ترويض القلب على العبادة: " أما الجوع فإنه ينقص دم القلب ويبيضه، وفي بياضه نوره، ويذيب شحم الفؤاد وفي ذوبانه رقته، ورقته مفتاح المكاشفة، كما أن قساوته سبب الحجاب".

إن التقليل من الطعام والأكل عند الغزالي له فوائد اجتماعية أيضا، وليس فقط المنافع الروحية، فهو يجعل الإنسان يفضل الإيثار على نفسه، والتصدق على المساكين والفقراء بما بقي لديه من الأكل، فيكون يوم القيامة من أهل الصدقة. أما الشبع فإنه كما سبق القول يؤدي إلى تفضيل الدنيا على الآخرة، حيث يقول الغزالي هنا: "إن القوم لما شبعت بطونهم جمحت بهم نفوسهم إلى هذه الدنيا، وهذه ليست فائدة واحدة بل هي خزائن الفوائد، ولذلك قيل: الجوع خزانة من خزائن الله تعالى. وأقل ما يندفع بالجوع شهوة الفرج وشهوة الكلام، فإن الجائع لا يتحرك عليه شهوة فضول الكلام، فيتخلص به من آفات اللسان كالغيبة والفحش والكذب والنميمة وغيرها، فيمنعه الجوع من كل ذلك. وإذا شبع افتقر إلى فاكهة فيتفكه لا محالة بأعراض الناس، ولا يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ إِلَّا حصائد ألسنتهم".

ويربط الغزالي بين شهوة البطن وشهوة الفرج، لأن الأولى تقود إلى الثانية، حيث قال: "وأما شهوة الفرج فلا تخفى غائلتها، والجوع يكفي شرها، وإذا شبع الرجل لم يملك فرجه، وإن منعته التقوى فلا يملك عينه، فالعين تزني كما أن الفرج يزني، فإن ملك عينه بغض الطرف، فلا يملك فكره، فيخطر له من الأفكار الرديئة وحديث النفس بأسباب الشهوة ما يتشوش به مناجاته، وربما عرض له ذلك في أثناء الصلاة".

ثم من الفوائد أيضا للجوع مقاومة النوم ودوام السهر، فإن من شبع شرب كثيراً ومن كثر شربه كثر نومه، وفي كثرة النوم ضياع العمر وفوت التهجد وبلادة الطبع وقساوة القلب، والعمر أنفس الجواهر وهو رأس مال العبد، فيه يتّجر. والنوم عند الغزالي موت، فتكثيره ينقص العمر.

وكذلك من الفوائد تيسير المواظبة على العبادة، فإن الأكل يمنع من كثرة العبادات لأنه يحتاج إلى زمان يشتغل فيه بالأكل، وربما يحتاج إلى زمان في شراء الطعام وطبخه، ثم يحتاج إلى غسل اليد، ثم يكثر ترداده إلى بيت الماء لكثرة شربه، والأوقات المصروفة إلى هذا لو صرفها إلى الذكر والمناجاة وسائر العبادات لكثر ربحه.

ومنها أيضا أن الإنسان مع الشبع لا ينسى بلاء الله وعذابه، ولا ينسى أهل البلاء، فإن الشبعان ينسى الجائع وينسى الجوع، والعبد الفطن لا يشاهد بلاء من غيره إلا ويتذكر بلاء الآخرة، فيذكر من عطشه عطش الخلق.

ومنها أخيرا كسر شهوات المعاصي كلها والاستيلاء على النفس الأمارة بالسوء، فإن منشأ المعاصي كلها الشهوات، ولذلك فإن تقليل الأطعمة يضعف كل شهوة وقوة، وإنما السعادة كلها في أن يملك الرجل نفسه، والشقاوة في أن تملكه نفسه.

ويختم الغزالي هذا الباب بقوله: "فهذه عشرة فوائد للجوع يتشعب من كل فائدة فوائد لا ينحصر عددها، ولا تتناهى فوائدها، فالجوع خزانة عظيمة لفوائد الآخرة".

فضول الكلام

لقد عالج الغزالي موضوع فضول الكلام وآفات اللسان في كتاب "إحياء علوم الدين" معالجة الفيلسوف المربي، كما مر معنا آنفا، إذ جعل الكلام بابا من أبواب الشر والإثم إذا كان زائدا عن الحاجة، وكان فيه ما يمس بالآخرين. وقد خصص بابا لهذا الموضوع سماه "كتاب آفات اللسان وهو الكتاب الرابع من ربع المهلكات من كتاب إحياء علوم الدين"، بدأه بالثناء على الله سبحانه لنعمة البيان واللسان، وقال: " فإن اللسان من نعم الله العظيمة ولطائف صنعه الغريبة، فإنه صغير جرمه عظيم طاعته وجرمه، إذ لا يستبين الكفر والإيمان إلا بشهادة اللسان، وهما غاية الطاعة والعصيان. ثم إنه ما من موجود أو معدوم، خالق أو مخلوق، متخيل أو معلوم، مظنون أو موهوم، إلا واللسان يتناوله ويتعرض له بإثبات أو نفي. فإن كل ما يتناوله العلم يعرب عنه اللسان، إما بحق أو باطل، ولا شيء إلا والعلم متناول له".

حذر الغزالي من آفة الكلام وفضوله، فواجب الإنسان أن لا يرخي العنان للسانه يقول به ما يشاء دون ضابط، ويسلك به كل مسلك، حيث قال: "فمن أطلق عذبة اللسان وأهمله مرخى العنان، سلك به الشيطان في كل ميدان، وساقه إلى شفا جرف هار، إلى أن يضطره إلى البوار. ولا يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ إِلَّا حصائد ألسنتهم، ولا ينجو من شر اللسان إلا من قيده بلجام الشرع، فلا يطلقه إلا فيما ينفعه في الدنيا والآخرة، ويكفه عن كل ما يخشى غائلته في عاجله وآجله".

إن اللسان عضو صغير في الفم، وهو سريع الحركة سهل التحريك، لذلك فإن خطره عظيم عند الغزالي، إذ لا يكلف الإنسان مشقة أو جهدا، ولا يوليه اهتماما. وقد اعتبر الغزالي اللسان "آلة الشيطان"، به يغوي الناس ويجرهم إلى

الإثم، ولذلك يتوسع الغزالي في الحديث عن آفات الكلام وفضوله، ووسائل الحذر من إطلاق اللسان وصيانته عن الشر، ومن تم ينصرف إلى الحديث عن فضيلة الصمت، مستدلا بالآيات والأحاديث والأخبار.

لقد اعتبر الغزالي أن اللسان أخطر عضو لدى الإنسان، لأنه كما يقول "منطلق بالطبع ولا مؤنة عَلَيْهِ فِي الْحَرَكَةِ، وَجِنَايَتُهُ عَظِيمَةٌ بِالْغِيبَةِ وَالْكَذِبِ وَالنَّمِيمَةِ، وَتَزْكِيَةِ النَّفْسِ وَمَذَمَّةِ الْخَلْقِ، وَالْأَطْعِمَةِ وَاللَّعْنِ وَالدُّعَاءِ عَلَى الْأَعْدَاءِ وَالْمُمَارَاةِ فِي الْكَلَامِ".

إن وظيفة اللسان هي الذكر والتعلم والتعليم والإرشاد، وليست الكلام في ما لا حاجة إليه، فهو يرى أن اللسان خلقه الله للذكر والتذكير وتكرار العلم والتعليم "وإرشاد عباد اللهَّ إِلَى طَرِيقِ اللهَّ، وَإِصْلَاحِ ذَاتِ الْبَيْنِ وسائر خيراته، فليشترط على نفسه أن لا يحرك اللسان طول النهار إلا في الذكر، فنُطق المؤمن ذكر ونظره عبرة وصمته فكرة"، وقد قال تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ (ق ١٨). ومعناه أنه إنما تتهيأ الجنة لمن لا يحاسَب، ومن تكلم فيما لا يعنيه حوسب عليه، وإن كان كلامه غير مباح، فلا تتهيأ الجنة مع المناقشة في الحساب فإنه نوع من العذاب". وقال أبو ذر: قال لي رسول الله ﷺ: ألا أعلمك بعمل خفيف على البدن ثقيل في الميزان؟ قلت: بلى يا رسول الله، قال: هو الصمت وحسن الخلق وترك ما لا يعنيك".

ويشرح الغزالي المقصود من هذا الحديث النبوي، فيقول: "وحد الكلام فيما لا يعنيك أن تتكلم بكلام لو سكتّ عنه لم تأثم، ولم تستضرّ به في حال ولا مآل".

وعند الغزالي أن السؤال لغير حاجة قد يؤدي إلى نتائج وخيمة على السائل والمسؤول، لذلك على الإنسان أن لا يدخل في السؤال والمحاججة والجدال دون ضرورة، فإن آفات اللسان لا تنتهي، وهي تؤدي إلى الكذب والنفاق والنميمة والرياء أو السخرية من الآخرين.

ينصح الغزالي بمعالجة فضول الكلام وآفات اللسان، وذلك بأن يعلم الإنسان أن الموت بين يديه، وأنه مسؤول عن كل كلمة، وأن أَنْفَاسَهُ رَأْسُ مَالِهِ،وأن لسانه يمكن أن يدخله إلى الجنة أو النار. كما ينصح الغزالي بالعزلة وأن يلتزم الإنسان الصمت عما لا يعنيه من الفضول، حتى يتعود اللسان على الانضباط.

وفضول الكلام هي الزيادة في الحديث فوق الحاجة، وهو خلق مذموم، وعلاجه الاختصار ما أمكن دون البحث في أمور لا ضرورة لها ولا حاجة. ويرى الغزالي أن فضول الكلام لا حدود له، وأن المهم في الكلام محصور في كتاب الله، وقد قال تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ (النساء ١١٤)، وقال ﷺ:"طُوبَى لِمَنْ أَمْسَكَ الْفَضْلَ مِنْ لِسَانِهِ وَأَنْفَقَ الْفَضْلَ مِنْ مَالِهِ".

ويفسر فضول الكلام بقوله:"هُوَ الْكَلَامُ فِي الْمَعَاصِي، كَحِكَايَةِ أَحْوَالِ النِّسَاءِ وَمَجَالِسِ الْخَمْرِ ومقامات الفساق، وتنعُّم الأغنياء وتجبر الملوك، ومراسمهم المذمومة وأحوالهم المكروهة، فإن كل ذلك مما لا يحل الخوض فيه، وهو حرام، وأما الكلام فيما لا يعني أو أكثر مما يعني فهو ترك الأولى، ولا تحريم فيه.ومن يُكثر الكلام فيما لا يعني لا يُؤمن عليه الخوض في الباطل، وَأَكْثَرُ النَّاسِ يَتَجَالَسُونَ لِلتَّفَرُّجِ بِالْحَدِيثِ، وَلَا يَعْدُو كَلَامُهُمُ التَّفَكُّهَ بِأَعْرَاضِ النَّاسِ أَوِ الْخَوْضَ فِي الْبَاطِلِ، وَأَنْوَاعُ الْبَاطِلِ لَا يُمْكِنُ حَصْرُهَا لِكَثْرَتِهَا وَتَفَنُّنِهَا، فَلِذَلِكَ لَا مَخْلَصَ مِنْهَا إِلَّا بِالِاقْتِصَارِ عَلَى مَا يَعْنِي مِنْ مُهِمَّاتِ الدِّينِ وَالدُّنْيَا".

لقد فضل الغزالي الصمت بدلا من فضول الكلام، وصيانة اللسان عن الخوض في ما لا طائل تحته، وذلك لأن كثرة آفات اللسان تؤدي إلى الوقوع في الخطأ والكذب والغيبة والنميمة والرياء والنفاق، والفحش والمراء وتزكية النفس، والخوض في الباطل، والخصومة والفضول والتحريف، والزيادة والنقصان وإيذاء الخلق وهتك العورات.

فهـذه الآفـات بالنسـبة للغـزالي يجـد فيهـا الإنسـان خفـة في حركـة اللسـان، وحـلاوة في القلـب، لذلـك يـرى أن في الخـوض في فضـول الـكلام خطـرا وفي الصمـت سـلامة، فلذلـك عظمـت فضيلـة الصمـت "هـذا مـع مـا فيـه مـن جمـع الهـم ودوام الوقـار والفـراغ للفكـر والذكـر والعبـادة والسـلامة مـن تبعـات القـول في الدنيـا ومـن حسـابه في الآخـرة".

وقـد قسـم الغـزالي الـكلام إلى أربعـة أقسـام، قسـم هـو ضرر محـض، وقسـم هـو نفـع محـض، وقسـم فيـه ضرر ومنفعـة، وقسـم ليـس فيـه ضرر ولا منفعـة.

أمـا الـذي هـو ضرر محـض فـلا بـد مـن السـكوت عنـه، وكذلـك مـا فيـه ضرر ومنفعـة لا تفـي بالضرر.وأمـا مـا لا منفعـة فيـه ولا ضرر فهـو فضـول، والاشـتغال بـه تضييـع للوقـت، وهـو عـين الخسـران، فـلا يبقـى إلا القسـم الرابـع، فقـد سـقط ثلاثـة أربـاع الـكلام وبقـي الربـع، وهـذا الربـع فيـه خطـر، إذ يمتـزج بـما فيـه إثـم مـن دقائـق الريـاء والتصنـع والغيبـة، وتزكيـة النفـس وفضـول الـكلام، امتزاجـا يخفـى إدراكـه، فيكـون الإنسـان بـه مُخاطـرا".

يتوجـه الغـزالي إلى طالبـي السـلوك والمريديـن بعـدة نصائـح وتوجيهـات، فيقول:"اعلـم أن أحسـن أحوالـك أن تحفـظ ألفاظـك مـن جميـع الآفـات التـي ذكرناهـا، مـن الغيبـة والنميمـة والكـذب والمـراء والجـدال وغيرهـا، وتتكلـم فيـما هـو مبـاح لا ضرر عليـك فيـه، ولا عـلى مسـلم أصـلاً، إلا أنـك تتكلـم بـما أنـت مسـتغن عنـه ولا حاجـة بـك إليـه، فإنـك مضيـع بـه زمانـك، ومحاسـب عـلى عمـل لسـانك، وتسـتبدل الـذي هـو أدنـى بالـذي هـو خـير، لأنـك لـو صرفـت زمـان الكلامإلى الفكـر ربـما كان ينفتـح لـك مـن نفحـات رحمـة الله عنـد الفكـر مـا يعظـم جـدواه، ولـو هللـت الله سـبحانه وذكرتـه وسـبحته لـكان خـيراً لـك، فكـم مـن كلمـة يبنـي بهـا قـصراً في الجنـة، ومـن قـدر عـلى أن يأخـذ كنـزاً مـن الكنـوز فأخـذ مكانـه مَـدَرة لا ينتفـع بهـا كان خـاسراً خسرانـاً مبينـاً، وهـذا مثـال مـن تـرك ذكـر

الله تعالى واشتغل بمباح لا يعنيه، فإنه وإن لم يأثم فقد خسر حيث فاته الربح العظيم بذكر الله تعالى، فإن المؤمن لا يكون صمته إلا فكرا ونظره إلا عبرة ونطقه إلا ذكراً".

ويرى الغزالي أن الإنسان ربما قال كلاما ظن أنه حق ولكنه ليس بحق، بل هو صاحب غرض وهدف منه، بل إن الغزالي ينهى حتى عن فضول الكلام في العلم، وهو ما يسمى بالجدل، وهو أمر مذموم عنده، لذلك قال:"بل الواجب السُّكُوتُ أَوِ السُّؤَالُ فِي مَعْرِضِ الِاسْتِفَادَةِ، لَا على وجه العناد والنكارة، أَوِ التَّلَطُّفُ فِي التَّعْرِيفِ لَا فِي مَعْرِضِ الطعن"، والسبب في ذلك بالنسبة للغزالي أن المجادلة هي عبارة عن محاولة للقضاء على الخصم والطعن فيه والنيل منه، لا بحثا عن العلم.

الكذب

الكـذب نقيـض الصـدق، وهـو عبـارة عـن قـول شيء مخالـف للواقـع وتحريـف للحقيقـة، وتزييـف للأخبـار. أمـا الصـدق فقـد عرفـه بعـض العلـماء بأنـه "مطابقـة الـكلام للواقِـع بحسـب اعتقـاد المتكلِّـم".

وقـد وردت الإشـارة إلى الصـدق والكـذب في القـرآن الكريـم والسـنة النبويـة المطهـرة في عـدة مواضـع، سـواء بنفـس العبـارات أو بمشـتقاتها. قـال تعـالى: ﴿ فمـن أظلـم ممـن كـذب عـلى الله وكذب بالصـدق إذ جـاءه﴾ (الزمـر ٣٢). وعن عائشـة ﵂ قالت: "مـا كان خلـق أبغـض إلى رسـول الله ﷺ من الكـذب، ولقـد كان الرجل يحدث عنـد النبـي ﷺ بالكذبـة، فـما يـزال في نفسـه، حتـى يعلـم أنـه قد أحـدث منهـا توبة".

لقـد عالـج الإمـام أبو حامـد الغـزالي في كتاب "إحياء علـوم الدين" قضيـة الصدق والكـذب معالجـة شرعية تربويـة، على غـرار مختلف القضايـا الأخلاقية الأخـرى التي تطـرق إليهـا في كتابه الغنـي. فالكذب عنـده رذيلة والصـدق فضيلة، لذلـك قال تعالى {رِجَـالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا الله عليـه}، وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: " إِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَالْبِرَّ يَهْـدِي إِلَى الْجَنَّـةِ، وَإِنَّ الرَّجُـلَ لَيَصْدُقُ حَتَّى يُكْتَـبَ عِنْدَ اللهَّ صِدِّيقًـا. وَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُـورِ وَالْفُجُورَ يَهْـدِي إِلَى النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْـذِبُ حتى يكتب عند الله كذاباً".

يقـول الغـزالي في تبسـيط معـاني الصدق: "ويكفـي في فضيلـة الصـدق أن الصديـق مشـتق منـه، والله تعـالى وصـف الأنبيـاء بـه في معـرض المـدح والثنـاء فقـال: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾﴾ [مريـم:٤١] وقـال: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ﴿٥٤﴾﴾ (مريـم ٥٤)، وقـال تعـالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾﴾ (مريـم ٥٦)، وقـال ابـن عبـاس: " أربـع مـن كـن فيـه فقـد ربـح: الصـدق والحيـاء وحسـن الخلـق والشـكر".

ولا يكتفي الغزالي بالاستشهاد بالآيات والأحاديث، بل يستشهد أيضا بأقوال العلماء والزهاد والصالحين، مثل قول أبي سليمان الداراني: "اجعل الصدق مطيتك والحق سيفك والله تعالى غاية طلبتك"،وقول محمد بن علي الكناني: "وجدنا دين الله تعالى مبنياً على ثلاثة أركان: على الحق والصدق والعدل، فالحق على الجوارح والعدل على القلوب والصدق على العقول".

يرى أبو حامد الغزالي أن لفظ الصدق يستعمل في ستة معان: صدق في القول، وصدق في النية والإرادة، وصدق في العزم، وصدق في الوفاء بالعزم، وصدق في العمل، وصدق في تحقيق مقامات الدين كلها، ثم يقول:" فمن اتصف بالصدق في جميع ذلك فهو صديق لأنه مبالغة في الصدق".

كما أن الصدق عنده درجات ومراتب، الصدق الأول صدق اللسان، وذلك لا يكون إلا في الإخبار أو فيما يتضمن الإخبار وينبَّه عليه، والخبر إما أن يتعلق بالماضي أو بالمستقبل، وفيه يدخل الوفاء بالوعد والخُلف فيه. وهذا النوع الأول هو أفضل أنواع الصدق عند الغزالي، الذي يقول: "وَحَقٌّ عَلَى كُلِّ عَبْدٍ أَنْ يَحْفَظَ أَلْفَاظَهُ فلا يتكلم إلا بالصدق، وهذا هو أشهر أنواع الصدق وأظهرها، فمن حفظ لسانه عن الإخبار عن الأشياء على خلاف ما هي عليه فهو صادق".

ولكن الغزالي يشترط أمرين لكي يكون هذا النوع من الصدق حقيقيا، الأمر الأول هو الاحتراز عن المعاريض، والمعاريض جمع معراض، ومعناها عدم الخوض في الكلام والإعراض عنه، فإذا تجنب الإنسان الكلام دون حاجة فقد تجنب الكذب. أما الأمر الثاني فهو أن يراعي الإنسان الصدق لذاته في كلامه وألفاظه.

يعرف الغزالي الكذب فيقول: "الكذب تفهيم الشيء على خلاف ما هو عليه في نفسه"، وحكمه في ميزان الشرع أنه حرام، فهو قبيح. لكنه ليس

حراما لذاته، بل لما يلتحق به من الضرر على المخاطب أو غيره. ولهذا فقد يخرج إلى دائرة الجواز، فيصير حسنا، إما استثناء لضرورة معينة، أو لـ"غرض" شرعي صحيح. يقول الغزالي: "الكلام وسيلة إلى المقاصد، فكل مقصود محمود يمكن التوصل إليه بالصدق والكذب جميعا، فالكذب فيه حرام. وإن أمكن التوصل إليه بالكذب دون الصدق، فالكذب فيه مباح إن كان تحصيل ذلك المحصول مباحا، وواجب إن كان المقصود واجبا، فكان الكذب حراما في الأصل إلا لضرورة".

فالصدق والكذب إذن عند أبي حامد الغزالي ليسا قبيحين في ذاتهما، لخصوصية فيهما، بل لما يؤديانه في الواقع من أمور إيجابية أو سلبية، أي بحسب المقاصد المرتبطة بهما، فإذا كانت المقاصد حسنة مثلا كان الكذب حسنا، لأنه يؤدي إلى نتائج حسنة مطلوبة شرعا، بل قد يصبح واجبا في بعض الحالات لكن إذا كانت المقاصد سيئة كان الكذب محرما، لأنه يؤدي إلى نتائج محرمة.

يقول الغزالي في هذا المعنى: "اعْلَمْ أن الكذب ليس حراماً لعينه، بل لِمَا فِيهِ مِنَ الضَّرَرِ عَلَى الْمُخَاطَبِ أَوْ على غيره، فإن أقل درجاته أن يعتقد المخبر الشيء على خلاف ما هو عليه، فيكون جاهلاً، وقد يتعلق به ضرر غيره، ورب جهل فيه منفعة ومصلحة، فالكذب محصل لذلك الجهل، فيكون مأذوناً فيه وربما كان واجباً".

إن الصدق والكذب عند الغزالي متعلقان بالكلام، والكلام له مقاصد وغايات، وبحسب هذه الغايات والمقاصد يكون الكلام محمودا أو مذموما. وهنا يقول الغزالي: "الكلام وسيلة إلى المقاصد، فكل مقصود محمود يمكن التوصل إليه بالصدق والكذب جميعاً، فالكذب فيه حرام، وإن أمكن التوصل إليه بالكذب دون الصدق فالكذب فيه مباح، إن كان تحصيل ذلك القصد مباحاً، وواجب إن كان المقصود واجباً. كما أن عصمة دم المسلم واجبة،

فمهما كان في الصدق سفك دم امرىء مسلم قَدِ اخْتَفَى مِنْ ظَالِمٍ، فَالْكَذِبُ فِيهِ وَاجِبٌ، ومهما كَانَ لَا يَتِمُّ مَقْصُودُ الْحَرْبِ أَوْ إِصْلَاحُ ذات البين أن استمالة قلب المجني عليه إلا بكذب، فالكذب مباح. إلا أنه ينبغي أن يحترز منه ما أمكن، لأنه إذا فَتح باب الكذب على نفسه فيخشى أن يتداعى إلى ما يستغني عنه، وإلى ما لا يقتصر على حد الضرورة، فيكون الكذب حراماً في الأصل إلا لضرورة".

إن معنى كلام الغزالي كما سبق القول هو أن يكون الصدق والكذب مرتبطين بالمقاصد بحسب طبيعتها، فإذا كان هناك مثلا شخص مسلم قد يتعرض لظلم أو قتل، وكانت نجاته مرتبطة بالكذب، فإن الكذب هنا يصبح واجبا لأنه ينقد حياة إنسان، وإذا كان الكذب مثلا يؤدي إلى إصلاح ذات البين بين الناس وإنهاء الخصومة فإنه يكون مطلوبا شرعا. غير أن الغزالي لا يفتح الباب على مصراعيه أمام الكذب، لأنه يشترط أن يكون ذلك مرتبطا بضرورة معينة، على أن لا يتجاوز تلك الضرورة.

إن الغزالي لا يبني تلك المواقف من الصدق والكذب على تحليلات شخصية، بل على قواعد شرعية مستنبطة من الأحاديث النبوية التي تضع نوعا من الاستثناء للكذب وفقا للحالات والأوضاع. فقد ذكر الحديث الذي روته أم كلثوم ﵂، حيث روت عن رسول الله ﷺ قوله:"مَا سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِّ ﷺ يُرخص في شيء من الكذب إلا في ثلاث، الرجل يقول القول يريد به الإصلاح، والرجل يقول القول في الحرب، والرجل يحدث امرأته والمرأة تحدث زوجها".

ففي هذا الحديث نجد النبي ﷺ يسمح بالكذب في ثلاثة أحوال، في حالة يريد الإنسان الإصلاح بين الناس، بحيث لا يمكن أن يحصل ذلك إلا عن طريق الكذب، وفي حالة الحرب، لأن الحرب خدعة كما ورد في الحديث النبوي،

ثم في الحديث بين الزوجين، لأن الكذب بين الزوجين في الأمور البسيطة يزيد المحبة بينهما ولا يكون نفاقا أو كذبا.

ويذكر الغزالي أيضا عن أم كلثوم ﵂ أنها قالت: قال رسول الله ﷺ: "لَيْسَ بِكَذَّابٍ مَنْ أَصْلَحَ بَيْنَ اثْنَيْنِ فَقَالَ خيراً أو نمى خيرا". وكذلك حديث أسماء بينت يزيد التي قالت: "كل الكذب يكتب على ابن آدم إلا رجل كذب بين رجلين يصلح بينهما".

ويروي الغزالي قصة عن صحابي اسمه أبو كاهل، قال: "وقع بين اثنين من أصحاب النبي ﷺ كلام، حتى تصارما، أي قطعا علاقتهما، فلقيت أحدهما فقلت له: مالك ولفلان فقد سمعته يحسن عليك الثناء؟، ثم لقيت الآخر فقلت له مثل ذلك، حتى اصطلحا، ثم قلت: أهلكت نفسي وأصلحت بين هذين. فأخبرت النبي ﷺ فقال: يا أبا كاهل أصلح بين الناس"، أي ولو بالكذب.

فهذا مثال شخص أراد أن يصلح بين شخصين تخاصما، فكذب عليهما بأن نقل إلى كل واحد منهما كلاما طيبا من كليهما في الآخر، حتى كانت النتيجة أنهما تصالحا.

الغضب

الغضب أحد الانفعالات النفسية لدى الإنسان، يرتبط به نوع من الهيجان والتقلب في المزاج النفسي، ويصحبه غياب العقل بسبب هذا التقلب، مما يؤدي إلى نتائج نفسية وبدنية واجتماعية، ولذلك يحذر منه علماء النفس وعلماء التربية، لما فيه من سلبيات، وإن كانوا ينصحون بالحد الأدنى منه، لأن الغضب ليس كله سلبيا، بل له أيضا نتائج إيجابية إذا تم توجيهه الوجهة السليمة.

وقد تكلم أبو حامد الغزالي في كتابه "إحياء علوم الدين" عن نزوة الغضب وآفاته وتبعاته، وخصص له الباب الخامس من الكتاب، وجعله في القسم الخاص بالمهلكات، وهي الآفات التربوية التي حذر منها في كتابه.

لقد مدح الشارع كف الغضب وكظم الغيظ، وربطه بالعفو عن الناس، فقال تعالى: ﴿ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤ ﴾ (آل عمران ١٣٣-١٣٤).

عرف الغزالي الغضب تعريفا جميلا فقال: فإن الغضب شعلة نار اقتبست من نار الله الموقدة التي تطلع على الأفئدة، وإنها لمستكنة في طي الفؤاد استكنان الجمر تحت الرماد، ويستخرجه الكبر الدفين في قلب كل جبار عنيد، كاستخراج الحجر النار من الحديد، وقد انكشف للناظرين بنور اليقين أن الإنسان ينزع منه عرق إلى الشيطان اللعين، فمن استفزته نار الغضب فقد قويت فيه قرابة الشيطان، حيث قال: "خلقتني من نار وخلقته من طين"، فإن شأن الطين السكون والوقار وشأن النار التلظي والاستعار والحركة والاضطراب، ومن نتائج الغضب الحقد والحسد، وبهما هلك من هلك وفسد من فسد".

والغضب عند الغزالي مضاد للسكينة والهدوء، وهما دليلان على حضور العقل والرزانة في التفكير وعدم التسرع. ففي تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ (الفتح ٢٦)، قال الغزالي: "الله في الْآيَةَ ذَمَّ الْكُفَّارَ بِمَا تَظَاهَرُوا بِهِ مِنَ الْحَمِيَّةِ الصَّادِرَةِ عَنِ الْغَضَبِ بِالْبَاطِلِ، وَمَدَحَ الْمُؤْمِنِينَ بما أنزل الله عليهم من السكينة".

ويفسر الغزالي الغضب تفسيرا فيزيولوجيا فيقول: "وبالجملة فقوة الْغَضَبِ مَحَلُّهَا الْقَلْبُ، وَمَعْنَاهَا غَلَيَانُ دَمِ الْقَلْبِ بطلب الانتقام، وإنما تتوجه هذه القوة عند ثورانها إلى دفع المؤذيات قبل وقوعها، وإلى التشفي والانتقام بعد وقوعها".

ولكن إذا كان هذا هو تعريف الغضب عند أبي حامد الغزالي، الذي شبهه بالنار المشتعلة في نفس الإنسان، وجعله نوعا من الاندفاع غير المنضبط، فما هي وسائل علاجه؟.

إن الغزالي يعتبر الغضب واحدا من الآفات المهلكة، ولهذا السبب نراه ينظر إليه نظرة تربوية، ويرى أن مدخل العلاج هو مدخل تربوي، لأن التربية هي نوع من الرياضة التي تهدف إلى تطويع النفس وتدريبها على التحلي بالفضائل السامية.

فأسباب الغضب كثيرة، يردها الغزالي إلى الزهو والتفاخر والكبرياء والمزاح والهزل والهزء والغدر وشدة الحرص، وهي كلها أَخْلَاقٌ رَدِيئَةٌ مَذْمُومَةٌ شَرْعًا، ولذلك يقول: " وَلَا خَلَاصَ مِنَ الْغَضَبِ مَعَ بَقَاءِ هذه الأسباب، فلا بد من إزالة هذه الأسباب بِأَضْدَادِهَا".

ينصح الغزالي بتعويض كل خلق ذميم بعكسه، لذلك فإن القضاء على الزهو والكبرياء يجب أن يكون بالتحلي بخلق التواضع، والقضاء على الهزل بكون بالتحلي بالجدية، والقضاء على الهزء والسخرية يكون بالتحلي بالتوقف عن إيذاء الناس، والقضاء على الحرص يكون بالتحلي بالقناعة، وهكذا دواليك.

وكل هذه القيم الإيجابية يجب أن ترتبط بالوعي بأن جميع الناس من جنس واحد وأب واحد، وإنما يختلفون في الفضل والمزايا، ولا فضل لإنسان على آخر إلا بالعمل الصالح والتقوى.

ولكي يحارب الإنسان تلك الرذائل يدعو الغزالي إلى الرياضة، التي يقصد بها تدريب النفس على الأخلاق الحميدة، حتى تتعود عليها وتصبح عندها عادات طبيعية.

يناقش الغزالي أولئك الذين يقولون بأن الرياضة الروحية لا تساعد على علاج الغضب، فيرد عليهم قائلا بأنهم يرون أن الخُلُق مثل الخَلْق، لا يقبل التغيير، ويرى أن هذا الرأي رأي ضعيف، لأنه كما أن الإنسان لديه عادات قبيحة اكتسبها بحكم التربية، كذلك يمكنه أن يكتسب عادات جيدة بحكم التربية أيضا.

ويشرح دور التربية والرياضة فيشبههما بالنبات، إذ يقول بأن النواة عندما تكون مجرد نواة فهي ليست تفاحا ولا نخلا، ولكنها خلقت بحيث تتحول إلى تفاح ونخل إذا أضيفت إليها التربية والرعاية، فكذلك الغضب، فإنه خلق في الإنسان بحيث يتصرف فيه حسب الأحوال، فيجعله نافعا أو يجعله ضارا، وذلك لا يمكن أن يحصل إلا بالتربية والمجاهدة.

ويرى الغزالي أن بعض الناس الجهال يقلبون أسماء الرذائل القبيحة، ويعطونها أسماء تناسب مزاجهم، مما يشجع تلك الرذائل على الانتشار. فهم يسمون الغضب شجاعة ورجولة وعزة، بحيث يعطون لكل شيء قبيح اسما جميلا. يقول الغزالي: "ومن أشد البواعث على الغضب عند أكثر الجهال تسميتهم الغضب شجاعة ورجولية وعزة نفس، وكِبَر همة، وتلقيبه بالألقاب المحمودة غباوة وجهلاً، حتى تميل النفس إليه وتستحسنه. وقد يتأكد ذلك بحكاية شدة الغضب عن الأكابر في معرض المدح بالشجاعة، والنفوس مائلة

إلى التشبه بالأكابر، فيهيج الغضب إلى القلب بسببه. وتسمية هذا عزة نفس وشجاعة جهل، بل هو مرض قلب ونقصان عقل".

إن الغضب بالنسبة للغزالي غير قابل للدفع، ولا يمكن التخلص منه إلا بأمرين مرتبطين مع بعضهما، هما العلم والعمل.

ومن شروط العلم أن يتفكر الإنسان في أحوال الناس السابقين وما حصل لهم بسبب الغضب، وأن ينظر في تجارب الآخرين.

والأمر الثاني أن يتذكر عقاب الله بسبب الغضب، بحيث يعرف أن قدرة الله أعظم من قدرته، فلو أنه طبق غضبه على الناس فإن الله سوف يطبق غضبه عليه هو أيضا يوم القيامة، وإذا كظم غيظه وعفا عن الناس فإنه سيستحق عفو الله عنه.

والأمر الثالث أن يحذر نفسه من عاقبة العداوة والانتقام، فإن الغضب ينتج عنه انتقام الآخرين، والسعي إلى الإضرار به، لذلك عليه أن يخوف نفسه من عقاب الدنيا إذا لم يكن يخاف عقاب الآخرة.

والأمر الرابع أن يتذكر قبح صورته في حالة الغضب، وذلك بأن يتذكر صورة الأشخاص الآخرين الذين يغضبون، فيرى كيف يصبح الإنسان الغاضب مثل الكلب الضاري المسعور أو الأسد الهائج. وعليه أن يقارن بين تلك الصورة، وبين صورة الشخص الحالم الهادئ العاقل، فيختار أيهما يفضل.

والأمر الخامس أَنْ يَتَفَكَّرَ فِي السَّبَبِ الَّذِي يَدْعُوهُ إِلَى الِانْتِقَامِ، وَيَمْنَعُهُ مِنْ كظم الغيظ. فالنفس تحدث الإنسان بأنه حين يغضب فإنه يكون قويا أمام الناس، ولا يصبح حقيرا، ولذلك على الإنسان أن يعرف بأنه إذا غضب لنفسه فقط وليس لله كان عقابه شديدا يوم القيامة، لأن غضبه كان فقط من حظوظ النفس.

إن الغـزالي لا يدعـو إلى القضـاء عـلى الغضـب نهائيـا، فهـذا غـير ممكـن عنـده، لأنـه طبـع نفـسي خلقـه الله في الإنسـان مثـل جميـع الطبـاع النفسـية الأخـرى، وإنـما المقصـود لديـه هـو التحكـم في طبـع الغضـب وتوجيهـه إلى الطريـق السـليم.

ومـن هنـا يـرى أن هنـاك طائفـة مـن النـاس ظنـت بـأن المقصـود مـن الرياضـة والمجاهـدة قمع هـذه الطباع بشـكل نهائي، مثل الغضب والشـهوة وغيرهمـا، فيرى أن هـذا غلط. فالشـهوة مثـلا خلقـت لفائدة معينـة، وهي ضروريـة لبقاء النـوع البشري، فلـو انقطعـت شـهوة الطعام مثـلا لهلك الإنسـان، ولو انقطعت شـهوة الجـماع لانقطع النسـل، وكذلـك الغضب، فلو انقطع كليا لما اسـتطاع الإنسـان أن يدفع عنـه ما يهلكه.

والمطلـوب عنـد الغـزالي رد كل هـذه الطبـاع إلى ميـزان الاعتـدال، والاعتـدال هو الوسـط بـين الإفـراط والتفريـط، والارتبـاط بالمقاصد الحسـنة في جميع الطبـاع فكما أن الغضـب يكـون خلقـا ذميـما في بعـض المواضـع يكون خلقـا رفيعـا في مواضـع أخرى مثـل الجهـاد، وفي هـذا يقول: "والمطلـوب في صفـة الغضـب حسـن الحميـة ، وذلـك بـأن يخلـو عـن التهـور وعـن الجبـن جميعـا. وبالجملـة أن يكـون في نفسـه قويـا، ومـع قوتـه منقـادا للعقـل؛ ولذلك قـال الله تعـالى: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾[الفتح : ٢٩]، وصفهـم بالشـدة، وإنـما تصـدر الشـدة عـن الغضب، ولـو بطل الغضـب لبطل الجهـاد، وكيـف يقصـد قلـع الشـهوة والغضـب بالكليـة، والأنبيـاء عليهـم السـلام لم ينفكـوا عـن ذلـك، إذ قـال - ﷺ: " إنـما أنـا بـشر أغضـب كـما يغضـب البـشر".

بـل إن الغـزالي يحـذر مـن غيـاب الغضـب نهائيـا، ويعتـبر ذلـك آفـة يجـب أن تعالـج، فيقول: "فمـن مـال غضبـه إلى الفتـور، حتـى أحـس مـن نفسـه بضعـف الغـيرة وخسـة النفـس في احتـمال الـذل والضيـم في غـير محلـه، فينبغـي أن يعالـج نفسـه حتـى يقـوى غضبـه، ومـن مـال غضبـه إلى الإفـراط حتـى جـره إلى التهـور واقتحـام الفواحـش، فينبغـي أن يعالـج نفسـه لينقـص مـن سَـورة الغضـب، ويقـف عـلى الوسـط الحـق بـين الطرفـين".

الحسد

الحسد من الطبائع النفسية الذميمة التي ذمها الشرع الإسلامي، فقال تعالى:﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ (النساء ٥٤). ذلك أن الحسد هو تمني زوال النعمة عن الآخرين، وهو يتضمن رفض تقسيم الأرزاق التي قسمها الله سبحانه على البشر، حيث قال تعالى في هذا المعنى:﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ ﴾ (الزخرف ٣٢). كما أن السنة النبوية الشريفة صريحة في ذم آفة الحسد، ومنها الحديث الذي رواه أبو هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال:"لا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانا". وقوله ﷺ:"الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب".

لقد وصف أبو حامد الغزالي في كتابه "إحياء علوم الدين" الحسد بأنه من أمراض القلوب، وَلَا تُدَاوَى أَمْرَاضُ الْقُلُوبِ إِلَّا بِالْعِلْمِ وَالْعَمَلِ، لأن الحسد نوع من التمرد على العطاء الرباني، وعصيان للعدالة الإلهية التي تفرق الأرزاق بين العباد. ويرى الغزالي أن الحسد لا ينفع صاحبه، بل ينفع المحسود، ولا يعود على الحاسد إلا بالضرر، ولذلك نصح بمعرفة آفات الحسد في الدين والدنيا، وقال:" والعلم النافع لمرض الحسد هو أن تعرف تحقيقا أن الحسد ضرر عليك في الدنيا والدين، وأنه لا ضرر فيه على المحسود في الدنيا والدين، بل ينتفع به فيهما، ومهما عرفت هذا عن بصيرة ولم تكن عدو نفسك وصديق عدوك فارقت الحسد لا محالة؛ أما كونه ضررا عليك في الدين فهو أنك بالحسد سخطت قضاء الله تعالى وكرهت نعمته التي قسمها بين عباده، وعدله الذي أقامه في ملكه بخَفيّ حكمته، فاستنكرت ذلك واستبشعته، وهذه جناية على حدقة التوحيد وقذى في عين الإيمان، وناهيك بهما جناية على الدين".

لقد رأى الغزالي أن أول من كان حاسدا هو إبليس، حين حسد آدم عليه السلام، فقال كما حكى عنه القرآن الكريم: "أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين". ولهذا يرى الغزالي أن الحاسد يشارك إبليس في هذه الرذيلة الشنعاء، فقال مخاطبا الحاسد: " وقد انضاف إلى ذلك أنك غششت رجلا من المؤمنين، وتركت نصيحته، وفارقت أولياء الله وأنبياءه في حبهم الخير لعباده تعالى، وشاركت إبليس وسائر الكفار في محبتهم للمؤمنين البلايا وزوال النعم، وهذه خبائث في القلب تأكل حسنات القلب كما تأكل النار الحطب".

إن ضرر الحسد بالنسبة للغزالي ضرر مزدوج، فهو ضرر في الدنيا وضرر في الآخرة، حيث يقول: " وأما كونه ضررا عليك في الدنيا فهو أنك تتألم بحسدك في الدنيا أو تتعذب به، ولا تزال في كمد وغم إذ أعداؤك لا يخليهم الله تعالى عن نعم يفيضها عليهم، فلا تزال تتعذب بكل نعمة تراها وتتألم بكل بلية تنصرف عنهم، فتبقى مغموما محروما متشعب القلب ضيق الصدر، قد نزل بك ما يشتهيه الأعداء لك وتشتهيه لأعدائك".

ويحذر الغزالي الحاسد مما يتعرض له من ألم القلب ومن عدم الانتفاع بحسده نهائيا، ويتعجب لمن يحسد الآخرين ويجمع الآثام والذنوب دون فائدة تذكر، قائلا: " فما أعجب من العاقل كيف يتعرض لسخط الله تعالى من غير نفع يناله، بل مع ضرر يحتمله وألم يقاسيه، فيهلك دينه ودنياه من غير جدوى ولا فائدة. وأما أنه ضرر على المحسود في دينه ودنياه فواضح، لأن النعمة لا تزول عنه بحسدك، بل ما قدره الله تعالى من إقبال ونعمة فلا بد أن يدوم إلى أجل غير معلوم، قدره الله سبحانه، فلا حيلة في دفعه، بل كل شيء عنده بمقدار ولكل أجل كتاب".

ويقول الغزالي إن آفة الحسد قد تنقلب على الحاسد نفسه، بحيث تزول عنه النعمة التي أنعم الله بها عليه، ويضاعف الله النعمة التي أنعمها على المحسود، فيزداد ألم الحاسد وتتضاعف معاناته.

هناك علاقة وطيدة بين الحسد والحقد، وهذه طبيعة الرذائل التي يؤدي بعضها إلى بعض. وقد فهم الغزالي هذا المعنى فربط بين الغضب والحسد والحقد، فقال:" اعلم أن الغضب إذا لزم كظمه لعجز عن التشفي في الحال رجع إلى الباطن واحتقن فيه، فصار حقدا، ومعنى الحقد أن يلزم قلبه استثقاله والبغضة له والنِّفار(النفور) عنه، وأن يدوم ذلك ويبقى، وقد قال ﷺ :"المؤمن ليس بحقود"، فالحقد ثمرة الغضب. والحقد يثمر ثمانية أمور: الأول الحسد، وهو أن يحملك الحقد على أن تتمنى زوال النعمة عنه، فتغتم بنعمة إن أصابها، وتسر بمصيبة إن نزلت به، وهذا من فعل المنافقين.

الثاني أن تزيد على إضمار الحسد في الباطن، فتشمت بما أصابه من البلاء.

الثالث أن تهجره وتصارمه وتنقطع عنه وإن طلبك وأقبل عليك.

الرابع وهو دونه، أن تعرض عنه استصغارا له.

الخامس أن تتكلم فيه بما لا يحل من كذب وغيبة وإفشاء سر وهتك ستر وغيره.

السادس أن تحاكيه استهزاء به وسخرية منه.

السابع إيذاؤه بالضرب وما يؤلم بدنه.

الثامن أن تمنعه حقه من قضاء دين أو صلة رحم أو رد مظلمة، وكل ذلك حرام".

فهذه ثمانية أمور تترتب عن الحقد والحسد، يستدل بها أبو حامد الغزالي على سوء الطبائع النفسية التي يقود بعضها إلى بعض، وينتج أحدها عن الآخر، حتى يتحول الأمر إلى سلسلة من الآفات، وذلك بسبب آفة واحدة تنتج عنها آفات.

ويوصي أبو حامد الغزالي بالتحلي بمجموعة من الأخلاق والقيم النبيلة، التي هي مضادة لتلك الأمور الفاسدة التي تقود إلى الحسد، حيث يقول:"فكل ما يتقاضاه الحسد من قول وفعل فينبغي أن يكلف نفسه نقيضه".

وأول شيء يوصي به هو أن يقبل الإنسان على العمل النافع، والعمل النافع يشكل كل شيء إيجابي معاكس للطبائع السلبية المنتجة للحسد. فإذا كان الحسد يدفع المرء إلى القدح في المحسود، وانتقاده، والنيل منه، فعليه أن يستبدل القدح بالمدح، بحيث يحمل نفسه على مدح الشخص الآخر بدل قدحه. وإذا كان الحسد يدفعه إلى التكبر والخُيلاء فعليه أن يحمل نفسه على التواضع وتصغير النفس. وإذا كان الحسد يدفعه إلى تمني زوال النعمة عن المحسود فعليه أن يحمل نفسه على أن يتمنى له زيادة النعمة. ويرى الغزالي أن تحلي المرء بهذه القيم المضادة للطبائع السلبية تؤدي إلى محبة الناس له، وتطهير نفسه، والنجاة من الآثام والذنوب، والتخلص مما يسببه الحسد من آلام في النفس والقلب.

قد تبدو هذه القيم النبيلة صعبة في البداية، ولكننا يجب أن نُذكر بأن الغزالي يربط التربية على الأخلاق بالرفيعة بالرياضة والتدريب ومجاهدة النفس، بحيث يتحول كل طبع إلى طبع مغاير بالتدريج.

إن الغزالي يدرك أن التحلي بهذه الطبائع المضادة صعب، ولذلك يقول: "فَهَذِهِ هِيَ أَدْوِيَةُ الْحَسَدِ، وَهِيَ نَافِعَةٌ جِدًّا، إِلَّا أَنَّهَا مُرَّةٌ عَلَى الْقُلُوبِ جِدًّا. وَلَكِنَّ النَّفْعَ فِي الدَّوَاءِ الْمُرِّ، فَمَنْ لَمْ يَصْبِرْ عَلَى مَرَارَةِ الدَّوَاءِ لَمْ يَنَلْ حَلَاوَةَ الشِّفَاءِ".

يشير الغزالي، وهو العالم والفيلسوف الذكي الألمعي، إلى أن الإنسان قد يفهم من توجيهاته ووصاياه بأن المطلوب منه أن يتحلى بالمجاملة والنفاق تجاه الآخرين، وأن يتصنع الطبائع الإيجابية أمام الناس، بينما هو يخفي في باطنه مشاعر وطبائع مناقضة لظاهره. ينبه الغزالي على خطأ هذا الفهم، منطلقا من مشروعه التربوي العام في كل كتابه "إحياء علوم الدين"، وهو مشروع يرتكز على الجمع بين الظاهر والباطن في التربية والسلوك، وعلى تطهير الباطن قبل الظاهر. وفي ذلك المعنى يقول: "ولا يزال الشيطان ينازعك إلى الحسد له ـ أي للشخص المحسود ـ ،ولكن إن قوي ذلك فيك حتى بعثك على إظهار

الحسد بقول أو فعل، بحيث يعرف ذلك من ظاهرك بأفعالك الاختيارية، فأنت حسود عاص بحسدك وإن كففت ظاهرك بالكلية، إلا أنك بباطنك تحب زوال النعمة، وليس في نفسك كراهة لهذه الحالة. فأنت أيضاً حسود عاص لأن الحسد صفة القلب لا صفة الفعل، قال اللهَّ تَعَالَىَ:" وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مما أوتوا".

فمحل الحسد عند الغزالي هو القلب وليس الجوارح، والعلاج عنده هو أن ينظر الإنسان إلى الناس بعين الرحمة، ويرى أنهم كلهم عباد الله، وأنهم مسخرون في هذه الدنيا، وأن لا يحب إيذاء أحد، وكما يقول في كتابه:"فكل من يحب إساءة مسلم فهو حاسد".

حقيقة الدنيا

تكررت كلمة الدنيا في القرآن الكريم مائة وعشر مرات، وكلمة الآخرة أيضا مائة وعشر مرات، ويعتبر هذا عند العلماء من الإعجاز العددي في القرآن. وقد وردت الإشارة إلى الدنيا في القرآن بمعان سلبية تحط من قيمتها وأهميتها، حيث قال تعالى: "واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء، فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح، وكان الله على كل شيء مقتدراً"، وقال سبحانه: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾ (الحديد ٢٠). وقال النبي ﷺ: "من كانت الدنيا همه، فرق الله عليه أمره، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلا ما كُتب له، ومن كانت الآخرة نيته، جمع الله له أمره، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة".

لقد استوعب أبو حامد الغزالي في كتابه "إحياء علوم الدين" هذه المعاني للدنيا، فخصص بابا في كتابه لكشف حقيقتها وشرح طبيعتها والتحذير من الاغترار بها. وقد فسر معاني الدنيا والآخر بطريقة ثاقبة فقال: " اعلم أن معرفة ذم الدنيا لا تكفيك ما لم تعرف الدنيا المذمومة ما هي، وما الذي ينبغي أن يُجتنب منها وما الذي لا يجتنب. فلا بد وأن نبين الدنيا المذمومة المأمور باجتنابها لكونها عدوة قاطعة لطريق الله ما هي، فنقول: دنياك وآخرتك عبارة عن حالتين من أحوال قلبك، فالقريب الداني منها يسمى دنيا، وهو كل ما قبل الموت، والمتراخي المتأخر يسمى آخرة، وهو ما بعد الموت، فكل ما لك فيه حظ ونصيب وغرض وشهوة ولذة عاجلَ الحال قبل الوفاة فهي الدنيا في حقك، إلا أن جميع مالَك إليه ميلٌ وفيه نصيب وحظ فليس بمذموم".

يرى الغزالي أن الدنيا عبارة عن أعيان موجودة، والمقصود بالأعيان هي الموجودات. وهذه الأعيان موجودة لصلاح حياة الإنسان، وهي ثلاثة عند الغزالي مجتمعة لا متفرقة، لأنها إذا تفرقت لم يعد هناك معنى للدنيا. فالدنيا عند الغزالي هي الأرض وما عليها من موجودات، وهي ثلاثة أقسام:الْمَعَادِنُ وَالنَّبَاتُ وَالْحَيَوَانُ. فالمعادن لصنع الآلات والأواني كالنحاس والرصاص، أو لصنع النقد كالذهب والفضة، والنبات للقوت والعلاج، والبهائم للحوم والركوب والزينة.

وكما قسم الدنيا من حيث الموجودات إلى ثلاثة أقسام، قسمها من حيث الأعمال إلى ثلاثة أقسام أيضا. فالقسم الأول هو ما يصحب الإنسان في الآخرة ويبقى معه بعد الموت، وهما شيئان، العلم والعمل، ويعني بالعلم العلم بالله وصفاته وأفعاله وملائكته وكتبه ورسله، والعلم بشريعة نبيه، أما العمل فيعني به العبادة الخالصة لوجه الله.

القسم الثاني يقابل القسم الأول، وهو كل أمر فيه حظ عاجل في الدنيا لكن ليست له نتيجة في الآخرة، وذلك مثل التلذذ بالمعاصي والذنوب، والتنعم بالمباحات التي هي زائدة على الحاجات والضرورات، مثل التنعم بالذهب والفضة والأنعام والحرث وغير ذلك من مطالب الدنيا، حيث يقول الغزالي:"فَحَظُّ الْعَبْدِ مِنْ هَذَا كُلِّهِ هِيَ الدُّنْيَا المذمومة".

أما القسم الثالث والأخير، والذي هو وسط بين الطرفين المذكورين، فهو كل شيء في الدنيا العاجلة يعين على أعمال الآخرة كالطعام واللباس من أجل بقاء واستمرار الحياة على الأرض. فهذه الأمور بالنسبة للغزالي إذا تناولها الإنسان على قدر الحاجة باعتدال فإنه لا يكون من أهل الدنيا، لأنه يستعين بها على آخرته، فإذا زاد ذلك على الحد المطلوب انتقل الإنسان إلى القسم الثاني وهو طلب الدنيا، فإذا انتقل الإنسان إلى هذا القسم انقطعت صلته

بالآخرة وصار يبحث عن المال والجاه، وقد جمع الله سبحانه شهوات الدنيا في آية واحدة فقال: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ﴾ [آل عمران:١٤].

لقد اعتبر الغزالي أن الأعيان الموجودة في الدنيا لها مع الإنسان نوعان من العلاقة، علاقة مع القلب وعلاقة مع البدن؛ فالعلاقة مع القلب تتمثل في حب الإنسان للدنيا وتفضيله لها، وانصراف همه إليها، وتكثير حظه ونصيبه منها، ويدخل في هذه العلاقة جميع الصفات القلبية التي تطرق إليها الغزالي في كتابه وفي مشروعه التربوي عامة، كالكبر والغل والحسد والرياء والسمعة وسوء الظن والمداهنة وحب الثناء وحب التكاثر والتفاخر، وهذه هي الدنيا الباطنة، وأما الدنيا الظاهرة فهي الأعيان المرتبطة بالعلاقة مع البدن، وهو اشتغاله بإصلاح هذه الأعيان لتصلح لحظوظه وحظوظ غيره، وهنا نرى الغزالي ينادي بشغل القلب والبدن بما يغنيهما عن الالتفات إلى حظوظهما من الدنيا، عبر "علاقة القلب بالحب وعلاقة البدن بالشغل".

ويرى الغزالي أنه كلما زادت علاقة القلب نقص تعلق الإنسان بالدنيا، وكلما زادت علاقة البدن زاد تعلقه بها، لأن الدنيا لم تخلق إلا لعلف الدابة، والدابة عند الغزالي هي البدن الذي يساعد على بقاء القلب أي الحياة، من أجل أداء الواجبات. فكما أن الدابة تأكل وتشرب من أجل استخدامها في الأغراض المطلوبة، والوصول إلى المقاصد، كذلك البدن يأكل ويشرب من أجل استخدامه في الحياة للعبادة والإصلاح، وليس لمجرد الأكل والشرب، لأن الإنسان إذا اقتصر في حياته فقط على الأكل والشرب كهدف أساسي، واشتغل بالبحث عن النعم والملذات، تحول إلى مجرد دابة.

وصف الغزالي حقيقة الدنيا بأنه سريعة الفناء والانقضاء، ولكنها تخدع الإنسان لأنها تعطيه وعودا بالبقاء رغم أنها زائلة، ثم تخلف بوعودها له. ويفسر علاقة

الإنسان بالدنيا تفسيرا نفسيا فيقول: "ولكن الناظر إليها قد لا يحس بحركتها فيطمئن إليها، وإنما يحس عند انقضائها، ومثالها الظل، فإنه متحرك ساكن، متحرك في الحقيقة ساكن في الظاهر، لا تدرك حركته بالبصر الظاهر، بل بالبصيرة الباطنة".

وقد وضع الغزالي للدنيا تشبيهات وأمثلة كثيرة لتقريبها إلى الناس، فضرب مثلا لعداوتها للإنسان وإهلاكها له فقال: "اعلم أن طبع الدنيا التلطف في الاستدراج أولاً والتوصل إلى الإهلاك آخراً، وهي كامرأة تتزين للخُطاب حتى إذا نكحتهم ـ أي تزوجتهم ـ ذبحتهم".

وضرب مثلا آخر للاختلاف بين ظاهرها وباطنها فقال: "اعلم أن الدنيا مزينة الظواهر قبيحة السرائر، وهي شبه عجوز متزينة تخدع الناس بظاهرها، فإذا وقفوا على باطنها وكشفوا القناع عن وجهها تمثلت لهم قبائحها، فندموا على اتباعها وخجلوا من ضعف عقولهم في الاغترار بظاهرها".

وضرب مثلا آخر لعبور الإنسان في الدنيا، فقال: "اعلم أن الأحوال ثلاثة، حالة لم تكن فيها شيئاً وهي ما قبل وجودك إلى الأزل، وحالة لا تكون فيها مشاهداً للدنيا وهي ما بعد موتك إلى الأبد، وحالة متوسطة بين الأبد والأزل وهي أيام حياتك في الدنيا. فانظر إلى مقدار طولها وانسبه إلى طرفي الأزل والأبد، حتى تعلم أنه أقل من منزل قصير في سفر بعيد".

إن حقيقة الحياة الدنيا عند الغزالي أنها تبدو للإنسان في البداية سهلة هينة لينة، تخدعه بحلاوتها وجمالها، ولكن الخروج منها سالما أمر شديد. وقد كتب علي بن أبي طالب إلى سلمان الفارسي ﷺ فقال: "مَثل الدنيا مثل الحية، لين مسها ويقتل سمها، فأعرض عما يعجبك منها لقلة ما يصحبك منها، وضع عنك همومها بما أيقنت من فراقها".

ثم يعلق الغزالي على ذلك بقوله: "وهذا يُعرفك جهالة قوم ظنوا أنهم يخوضون في نعيم الدنيا بأبدانهم وقلوبهم منها مطهرة، وعلائقها عن بواطنهم

منقطعة، وذلك مكيدة من الشيطان، بل لو أُخرجوا مما هم فيه لكانوا من أعظم المتفجعين بفراقها. فكما أن المشي على الماء يقتضي بللاً لا محالة يلتصق بالقدم فكذلك ملابسة الدنيا تقتضي علاقة وظلمة في القلب، بل علاقة الدنيا مع القلب تمنع حلاوة العبادة".

ويشبه الغزالي الدنيا والآخرة بالضرتين، كلما أرضيت واحدة أسخطت الأخرى، لأنك لا يمكن أن ترضي الاثنتين معا، ويستشهد بقول الحسن البصري عن أحوال الصحابة والتابعين وما كانوا عليه في علاقتهم بالحياة الدنيا، حيث يقول: "لقد أدركت أقواماً كانت الدنيا أهون عليهم من التراب الذي تمشون عليه، ما يبالون أشرقت الدنيا أم غربت، ذهبت إلى ذا أو ذهبت إلى ذا"، وروى عن عيسى عليه السلام قوله: "مثل طالب الدنيا مثل شارب ماء البحر، كلما ازداد شربا ازداد عطشاً حتى يقتله".

وقد ضرب الغزالي مثلا آخر للدنيا بمسافرين على متن سفينة من السفن، منهم من تاه في الطريق فهام على وجهه حتى هلك، ومنهم من مات في الأوحال، ومنهم من أكلتهم السباع، ومنهم من نهشته الحيّات.

البخل والسخاء

يبدأ أبو حامد الغزالي الباب الذي سماه "كتاب ذم البخل وذم حب المال"، من كتابه بمدخل يلخص فيه فلسفة المال بشكل عام فيقول: "الحمد لله مستوجب الحمد برزقه المبسوط، وكاشف الضر بعد القنوت، الذي خلق الخلق ووسع الرزق، وأفاض على العالمين أصناف الأموال، وابتلاهم فيها بتقلب الأحوال، ورددهم فيها بين العسر واليسر والغنى والفقر، والطمع واليأس والثروة والإفلاس، والعجز والاستطاعة والحرص والقناعة، والبخل والجود والفرح بالموجود والأسف على المفقود، والإيثار والإنفاق والتوسع والإملاق، والتبذير والتقتير والرضا بالقليل واستحقار الكثير، كل ذلك ليبلوهم أيهم أحسن عملاً وينظر أيهم آثر الدنيا على الآخرة".

في هذه الفقرة لخص الغزالي كل ما يرتبط بالمال من أخلاق في التعامل.

ترتكز الفلسفة التربوية للغزالي على التحذير من حب الدنيا والركون إليها، وتفضيلها على اليوم الآخر، ومن هناك ينطلق إلى تبسيط القيم والمطالب الروحية التي تشجع الإنسان على تقليص حجم الدنيا في عينيه، وتقليل قيمتها، والدعوة إلى الاعتدال والتوسط في جميع الأمور، بحيث لا يتخلى المرء عن الدنيا ولا يفرط في الآخرة.

لقد رأى الغزالي أن فتن الدنيا كثيرة، ولكن الأموال أعظم فتنها، والسبب في ذلك أن لا أحد من البشر يستغني عنها، لأنها ضرورية للمعاش، إذ يعتبر بأن المال إذا فُقد حصل منه الفقر والفقر كاد يكون كفرا، لكنه إذا زاد حصل منه الطغيان.

إن المال وسيلة للاختبار، ولذلك على المرء في نظر الغزالي أن يتوسط بين الفقر والغنى بحيث لا يميل مرة واحدة إلى أحد الطرفين، وإلا اختل قوام

الحياة وصارت عسيرة عليه. بيد أن الغزالي يرى أن الفقر والغنى معا يحصل بينهما الامتحان والاختبار، لأن الفقر قد يقود إلى السخط وعدم الرضا بما قسم الله، والغنى قد يقود إلى الطمع والحرص على الدنيا والبخل عما في يده، وكلتا الصفتين مذمومتان في الإسلام. كما أن الإنفاق من المال بتبذير مذموم أيضا، لأن الإنفاق يجب أن يكون باعتدال وفي نوع من الاقتصاد، وإلا كان الإنسان من المسرفين.

هناك طرفان لدى الإنسان في علاقته بالمال، فالطرف الأول هو البخل، والطرف الثاني هو التبذير. ويرى الغزالي أن البخل والتبذير معا ناتجان عن حب الدنيا، فالذي يبخل بماله حريص عليه، والذي يبذر ماله دون حاجة حريص على شهواته.

ولحب المال سببان اثنان، أحدهما حب الشهوات والملذات، وهي لا يمكن الوصول إليها إلا بالمال. وحب الشهوات ينتج عن حب الدنيا والالتصاق بها، فلو أن الإنسان مثلا علم أنه سيموت غدا فإنه لن يبخل بماله، ولكن حبه للمال ناتج عن طول الأمل في الحياة، وعدم وضع الموت بين عينيه، فإذا انضاف إلى ذلك خوف الفقر وقلة الثقة بمجيء الرزق قوي البخل لا محالة.

أما السبب الثاني لحب المال فهو تفضيل المال في حد ذاته، إذ هناك من الناس من يلتذ بجمع المال فقط من أجل الجمع، ويحب النظر إليه، ويكنزه خوفا من الفقر، فيعيش حياته كلها تعيسا وفقيرا رغم وجود المال بين يديه، لأنه يجمعه لكن لا يستفيد منه، ويقول الغزالي إن هذا مرض في القلب صعب العلاج، خصوصا مع كبر السن.

ولمعالجة مرض حب المال يوصي الغزالي بالتأمل في الآيات والأحاديث التي تذم البخل وتمدح السخاء، وتتحدث عما اذخره الله للأسخياء من الخير في الآخرة. كذلك يوصي بالتأمل في أحوال البخلاء وما حصل لهم، لكي يعلم

كيف أن الناس تكره الإنسان البخيل، كما يوصي بالتفكر في مقاصد المال ولماذا خلقه الله، فيجعله نصفين، نصف ينفقه على نفسه في الدنيا، ونصف ينفقه في سبيل الله لكي يجده في آخرته.

يُعرف الغزالي السخاء بأنه "عِبَارَةٌ عَنْ بَذْلِ مَا لَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ لِمُحْتَاجٍ أَوْ لِغَيْرِ مُحْتَاجٍ". فالسخاء هو الغطاء والكرم، وهو عند الغزالي درجات، أعلاها الإيثار، وهو أن يجود الإنسان بالمال مع حاجته إليه، كما قال تعالى "يوثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة".

وكما أن السخاء قد ينتهي بالإنسان إلى أن يسخو على غيره رغم أنه في حاجة إلى المال، كذلك البخل قد ينتهي بالإنسان إلى أن يبخل على نفسه رغم حاجته إلى الإنفاق، فكم من بخيل يبخل بماله ولا يعالج نفسه عند المرض، ويشتهي شيئا ولكنه لا يستطيع أن ينفق ماله عليه. فَهَذَا بَخِيلٌ عَلَى نَفْسِهِ مَعَ الْحَاجَةِ، وَذَلِكَ يُؤْثِرُ عَلَى نَفْسِهِ غَيْرَهُ مَعَ أَنَّهُ مُحْتَاجٌ إِلَيْهِ.

يقول أبو حامد:" اعلم إن المال إن كان مفقودا فينبغي أن يكون حال العبد القناعة وقلة الحرص، وإن كان موجودا فينبغي أن يكون حاله الإيثار والسخاء واصطناع المعروف والتباعد عن الشح والبخل، فإن السخاء من أخلاق الأنبياء عليهم السلام، وهو أصل من أصول النجاة".

إن الغزالي يدرك جيدا أن الناس تختلف في المفاهيم وفي الصفات الأخلاقية، لأن كل واحد يرى ما يناسبه، فما يراه أحدهم بخلا قد يراه الآخر كرما وسخاء، والعكس صحيح، وقد يرى شخص ما أنه سخي مع أن الناس تنظر إليه على أنه بخيل، والعكس صحيح أيضا، فما هو تعريف البخل تحديدا؟.

هنا يرجع الغزالي إلى فلسفته التربوية التي تقوم على الاعتدال والتوسط في كل شيء، فالحرص على المال ليس كله بخلا، وإنفاق المال ليس كله سخاء. ويستعرض الغزالي بعض تعاريف البخل، مثل التعريف الذي يرى أن البخل

هو منع الواجب، فكل من أدى ما عليه فليس بخيلا، أو أن البخيل هو الذي يستصعب العطاء ويراه ثقيلا على النفس. ولكن الغزالي يرى أن هذه التعريفات وغيرها قاصرة عن الإحاطة بمفهوم البخل إحاطة جيدة، فيقول: "المال خلق لحكمة ومقصود، وهو صلاحه لحاجات الخلق، ويمكن إمساكه عن الصرف إلى ما خلق للصرف إليه، ويمكن بذله بالصرف إلى ما لا يحسن الصرف إليه، ويمكن التصرف فيه بالعدل، وهو أن يحفظ حيث يجب الحفظ، ويبذل حيث يجب البذل؛ فالإمساك حيث يجب البذل بخل والبذل حيث يجب الإمساك تبذير، وبينهما وسط وهو المحمود. وينبغي أن يكون السخاء والجود عبارة عنه، إذ لم يؤمر رسول الله ﷺ إلا بالسخاء، وقد قيل له: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ (الإسراء ٢٩)، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ (الفرقان ٦٧).

لقد فسر الغزالي السخاء والجود بأنه أداء الواجب، ولكن لا يكفي أن يؤدي الإنسان الواجب بجوارحه فقط بينما قلبه غير راض، بل لا بد من الرضا الباطني، وإلا كان هذا السخاء فيه تصنع وليس نابعا عن اقتناع، ولن يكون فيه أجر.

والواجب عند الغزالي قسمان، واجب بالشرع، وواجب بالمروءة والعادة. فالسخي حقيقة هو الذي لا يمنع واجب الشرع ولا واجب المروءة، فإن منع واحدا منهما فهو بخيل، ولكن الذي يمنع واجب الشرع، مثل منع أداء الزكاة ومنع النفقة عن أهله، فهو البخيل حقا.

أما واجب المروءة فهو عدم التشدد في الأمور الحقيرة التافهة، وعدم الحرص عليها، ولذلك يرى أن "البخيل هو الذي يمنع حيث ينبغي أن لا يَمنع، إما بحكم الشرع وإما بحكم المروءة، وذلك لا يمكن التنصيص على مقداره. ولعل حد البخل هو إمساك المال عن غرض، ذلك الغرض هو أهم من حفظ المال، فإن صيانة الدين أهم من حفظ المال".

وهناك درجة أخرى، فقد يكون الإنسان ممن يؤدي الواجب ويحفظ المروءة، ولكنه يملك مالا كثيرا ولا ينفق في الصدقات للمحتاجين والفقراء، فهذا أيضا نوع من البخل، والناس ترى ذلك السلوك قبيحا، ويزداد قبح ذلك الفعل باختلاف مقدار المال وباختلاف شدة حاجة المحتاج.

وهذه فلسفة إسلامية في الإنفاق قعد لها حجة الإسلام القواعد وجعل لها مقاصد، فالرجل المتمول أي كثير المال لا يعفيه من المسؤولية أداء ما عليه شرعا في حدود الواجب، لأن التكاليف عليه في ماله متعلقة بما يملكه من أموال لا بما هو واجب عليه كغيره من الناس، فكلما زاد مال المسلم زادت الواجبات عليه وزادت حقوق أفراد الأمة فيه.

الخوف والرجاء

الخوف شعور طبيعي لدى الإنسان، مثله مثل شائر المشاعر الطبيعية الأخرى كالخوف والحزن والجوع والعطش وغيرها. فهو يعطي لحياة الإنسان نوعا من التوازن، ويضمن له البقاء، لأن عدم الخوف يجعله متهورا فيقبل على المهالك والكوارث فيفنى وجوده، ولو انعدم الخوف من الحياة لصارت حياة الناس فوضى قاتلة، لأن الخوف يقوم بدور الضبط للأفراد.

وقد تعرض القرآن الكريم للخوف في مواضع كثيرة، وعالج الخوف عند الأنبياء والرسل، مثل ما وقع لموسى عليه السلام في عدة مناسبات، فقد قال تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِي ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۖ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ﴾(القصص ١٨)، وكما حصل له عندما انقلبت العصا إلى حية، إذ قال تعالى: ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ﴾(القصص ٣١).

لقد شبه أبو حامد الغزالي في كتاب الإحياء الخوف بالنار، فقال: "الخوف هو النار المحرقة للشهوات، فإن فضيلته بقدر ما يحرق من الشهوات بقدر ما يكف عن المعاصي ويحث على الطاعات، ويختلف ذلك باختلاف درجات الخوف، وكيف لا يكون الخوف ذا فضيلة وبه تحصل العفة والورع والتقوى والمجاهدة، وهي الأعمال الفاضلة المحمودة التي تقرب إلى الله زلفى".

فالخوف عند الغزالي إذن مثله مثل المادة المحرقة للمعاصي، وبقدر ما تُحرق المعاصي بقدر ما تدفع الإنسان إلى الإقبال على الطاعات والأعمال الفاضلة، ذلك أن العبادة ليست لها سوى دافعان، إما خوف من العواقب، وإما طمع في المكاسب، ولذلك قال تعالى: "وادعوه خوفا وطمعا"، وقال: "ويدعوننا رغبا ورهبا".

وهـذا المعنـى هـو الـذي دار عليـه مفهـوم الخـوف عنـد الغـزالي، فهـو حافـز عـلى العمـل الصالـح والعبـادة، وحاجـز دون المعـاصي والذنـوب.

ويعتـبر الغـزالي أن الخـوف أعـلى المراتـب و المقامـات بـين كل الفضائـل، فيقـول بـأن مـن اشـتاق إلى الجنـة ونعيمهـا تخـلى عـن الشـهوات، ومـن خـاف مـن النـار رجـع عـن المحرمـات، وهـذا هـو مقـام الصـبر الـذي ينتـج عـن الخـوف والرجـاء، الذيـن يدفعـان الإنسـان إلى مقـام مجاهـدة النفـس والتجـرد لذكـر الله ودوام الذكـر، ويـؤدي دوام الذكـر إلى الأنـس، ودوام الفكـر إلى كـمال المعرفـة، ويـؤدي كـمال المعرفـة والأنـس إلى المحبـة، ويتبعهـا مقـام الرضـا والتـوكل وسـائر المقامـات، فهـذا عنـد الغـزالي هـو الترتيـب في سـلوك منـازل الديـن، وليـس فوقهـا منزلـة سـوى منزلـة الخـوف.

ولكن كيف يمكننا معرفة فضيلة الخوف وفائدته؟

هنـا يـرى الغـزالي أن فضيلة الخـوف تعـرف بأمرين اثنـين، إمـا بالتأمـل والاعتبار، أو بالآيـات والأخبـار، والمقصـود بالأخبـار هنـا بالطبـع الأحاديـث النبويـة وأخبـار الصالحين.

أمـا فيـما يتعلـق بالتأمـل والاعتبـار، فـإن الإنسـان يتأمـل في حياتـه لـيرى مـا وراءهـا ومـا سـيأتي بعدهـا، ومـاذا يرجـو الإنسـان بعـد هـذه الحيـاة الدنيـا. فـإذا علـم أن السـعادة الحقيقيـة هـي سـعادة الآخـرة، وأن هـذه السـعادة تتمثـل في لقـاء الله والقـرب منـه، فإنـه يـدرك آنـذاك أن كل مـا يعينـه عـلى هـذا القـرب مـن الله يجـب القيـام بـه.

ولذلـك يـرى الغـزالي أن لا وصـول إلى سـعادة لقـاء الله في الآخـرة إلا بتحصيـل محبتـه والأنـس بـه في الدنيـا، ولا تحصـل المحبـة إلا بالمعرفـة، ولا تحصـل المعرفـة إلا بـدوام الفكـر، ولا يحصـل الأنـس إلا بالمحبـة ودوام الذكـر، ولا تتيـسر المواظبـة عـلى الذكـر والفكـر إلا بانقطـاع حـب الدنيـا مـن القلـب، ولا ينقطـع ذلـك إلا بـترك

لـذات الدنيـا وشـهواتها، ولا يمكن تـرك المشـتهيات إلا بقمـع الشـهوات، ولا تنقمع الشـهوة بـشيء كـما تقمـع بنـار الخـوف، فالخـوف هـو النـار المحرقـة للشـهوات، فإن فضيلتـه بقـدر مـا يحـرق مـن الشـهوات بقـدر مـا يكـف عـن المعـاصي"، ولكـن ذلـك يرتبـط عنـد الغـزالي بمراتـب الخـوف، فكلـما زاد الخـوف كلـما زاد إقبـال المـرء عـلى العمـل الصالـح والتراجـع عـن المهلـكات.

أمـا معرفـة فضيلـة الخـوف مـن الآيـات والأخبـار، فهـي كثـيرة وتخـرج عـن الحـصر، ويـرى الغـزالي أن الله سـبحانه مـدح الخـوف وربطـه بقمـة الفضائـل، وهـي العلـم، فقال:{إنـما يخشـى الله مـن عبـاده العلـماء} (فاطـر ٢٨)، وهـذا دليـل عـلى أنـه كلـما ارتقـى الإنسـان في المعرفـة كلـما أصبـح أكثـر خوفـا مـن الله، فدرجـة الخـوف مرتبطـة بدرجـة المعرفـة، ولذلـك مـدح سـبحانه العلـماء بهـذه الصفـة، أي صفـة الخـوف. وقـال عـز وجـل: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾(البينـة ٨)، ويقـول الغـزالي معلقـا: "كُلُّ مَـا دَلَّ عَـلَى فَضِيلَـةِ الْعِلْـمِ دَلَّ عَـلَى فَضِيلَـةِ الْخَـوْفِ، لِأَنَّ الْخَـوْفَ ثَمَـرَةُ الْعِلْـمِ".

إن الغـزالي يـرى أن العلـم ينتـج الخـوف، والخـوف ينتـج الـورع والتقـوى، ولذلـك هنـا ارتبـاط وثيـق بـين الخـوف والتقـوى، لأن التقـوى هـي الخـوف مـن إتيـان المعـاصي والكـف عـن المحرمـات. وقـد خصـص الله تعـالى التقـوى بالإضافـة إلى نفسـه فقـال:﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾(الحـج ٣٧)، ويقـول الغـزالي : "إنـما التقـوى عبـارة عـن كـف بمقتـضى الخـوف"، وفي هـذا يقـول سـبحانه وتعـالى:﴿وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (آل عمـران ١٧٥)، فربـط الإيـمان بالخـوف، فمـن لا خـوف لـه لا إيـمان لـه. وقـال تعـالى أيضـا:﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ (الرحمـن ٤٦)، وَقَـالَ ﷺ في حديـث قـدسي: قَـالَ اللهُ عـز وجل:"وعـزتي لا أجمـع عـلى عبـدي خوفـين ولا أجمـع لـه أمنـين، فـإن أمِننـي في الدنيـا أخفتـه يـوم القيامـة، وإن خافنـي في الدنيـا أمّنتـه يـوم القيامـة".

بين الغزالي أن الإسلام تشدد في التحذير من الأمن من مكر الله وعذابه، في عدة آيات لا تنحصر، مثل قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف:٩٩]، وقال: ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنفال:٣٠].

ويعلق الغزالي قائلا: "وكل ذلك ثناء على الخوف، لأن مذمة الشيء ثناء على ضده الذي ينفيه، وضد الخوف الأمن، كما أن ضد الرجاء اليأس، وكما دلت مذمة القنوط على فضيلة الرجاء، فكذلك تدل مذمة الأمن على فضيلة الخوف المضاد له. بل نقول كل ما ورد في فضل الرجاء فهو دليل على فضل الخوف، لأنهما متلازمان، فإن كل من رجا محبوبا فلابد وأن يخاف فوته، فإن كان لا يخاف فوته فهو إذاً لا يحبه، فلا يكون بانتظاره راجياً. فالخوف والرجاء متلازمان يستحيل انفكاك أحدهما عن الآخر".

وقد فسر الغزالي كلمة الخوف في قوله تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ (نوح ١٣) بالخوف، وذلك لتلازم الوقار والخوف، إذ عادة العرب التعبير عن الشيء بما يلازمه.

وقد ربط الغزالي أيضا بين الخوف والبكاء في القرآن الكريم، وقال: "كل ما ورد في فضل البكاء من خشية الله فهو إظهار لفضيلة الخشية، فإن البكاء ثمرة الخشية، فقد قال تعالى ﴿فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا﴾ (التوبة ٨٢) وقال تعالى ﴿يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾﴾ (الإسراء ١٠٩)، وقال عز وجل ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾﴾ (النجم ٥٩-٦١)، وقال ﷺ: " مَا مِنْ عبد مؤمن تخرج من عينيه دمعة وإن كانت مثل رأس الذباب من خشية الله تعالى، ثم تصيب شيئاً من حر وجهه، إلا حرمه الله على النار".

لقد أشار الغزالي إلى أن الخوف من الله سبحانه مقامان، المقام الأول هو مقام الخوف من عذابه، والمقام الثاني هو مقام الخوف منه. فأما الخوف منه فهو خوف العلماء وأرباب القلوب، العارفين من صفاته ما يقتضي الهيبة

والخوف والحذر، المطلعين على سر قوله تعالى: "ويحذركم الله نفسه"، وقوله عز وجل: "اتقوا الله حق تقاته".

أما الأول، أي الخوف من عذابه، فهو خوف عموم الخلق، وهو حاصل بأصل الإيمان بالجنة والنار وكونهما جزاءين على الطاعة والمعصية،ويضعف هذا الخوف بسبب الغفلة وسبب ضعف الإيمان، ولذلك ينصح الغزالي بدوام التذكير والوعظ وملازمة الفكر في أهوال يوم القيامة وأصناف العذاب في الآخرة، وكذلك بالنظر إلى الخائفين ومجالستهم ومشاهدة أحوالهم، فإن فاتت المشاهدة فالسماع لا يخلو عن تأثير.أما الخوف من اللهفهو الأعلى مرتبة،بحيث يكون الله هو المخوِّف،أي أن يخاف العبد الحجاب عنه ويرجو القرب منه، وهذا كما سبق مقام العارفين، وفي ذلك يقول الغزالي: "من ارتقى إلى ذروة المعرفة وعرف الله تعالى خافه بالضرورة، فلا يحتاج إلى علاج لجلب الخوف، كما أن من عرف السبع ورأى نفسه واقعاً في مخالبه لا يحتاج إلى علاج لجلب الخوف إلى قلبه، بل يخافه بالضرورة شاء أم أبى".

وهذا المقام الأعلى عند أبي حامد الغزالي نابع من نور الهداية، فمن آمن وصدق بذلك بمجرد السماع فهو من عموم المؤمنين. وهو يدعو إلى علاج عدم الخوف بالاطلاع على الآيات والأخبار في هذا الشأن، والاستماع إلى أحوال الصالحين الخائفين، حتى يكون من الخائفين، أما الآمنون عند الغزالي فهم ثلاثة أصناف، الفراعنة والجهال والأغنياء.

الكِبْر والعجب

الكبر في اللغة يعني الكبرياء والتجبر والعظمة، وهو مأخذ من الجذر اللغوي "كاف. باء. راء"، والتي تدل على نقيض الصغر. فالكبر إذن هو أن ينظر الشخص إلى نفسه أنه أكبر وأعظم من الآخرين، ويرى في نفسه الكمال، خلافا للناس. وقد عرفه النبي ﷺ على أنه "بطر الحق، وغَمْط الناس"، ويعني استعظام النفس، واستحسان الفضائل، والاستهانة بالآخرين واستصغارهم، والترفع على من يجب التواضعُ له. وفي هذا يقول النبي ﷺ: "لا يدخل الجنةَ مَن في قلبه مثقال ذرة من كبر". ومن مرادفاته العجب، أي الإعجاب بالنفس وتضخيمها. وقد أشار القرآن الكريم إلى ذم العجب، فقال في غزوة حنين عندما أعجب المسلمون بكثرتهم فتعرضوا للهزيمة: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ [التوبة:٢٥].

بين أبو حامد الغزالي في كتابه "إحياء علوم الدين" أن خلق الكبر والعجب مذمومان في الإسلام وفي الحياة العامة. فقد ذم الله الكبر في عدة مواضع من القرآن الكريم، وذم كل جبار متكبر، فقال تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ (الأعراف ١٤٦)، وقال عز وجل: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾﴾ (غافر ٣٥)، وَقَالَ: ﴿وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾﴾ (إبراهيم ١٥). وقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مثقال حبة من خردل من كبر".

وقد فرق الغزالي بين الكبر والعجب، فالكبر خلق في النفس يجعل المرء ينظر إلى نفسه أنه أكبر من الآخرين، وهو يتطلب متكبَّرا عليه، أي أنه لا

بد من وجود شخصين ليتحقق الكبر، الأول متكبر والآخر متكبَّر عليه، بينما العجب لا يتطلب وجود شخص ثان، حيث يقول الغزالي إن المعجب بنفسه يعجب بها حتى لو خُلق وحده.

ويرى الغزالي أيضا أن الكبر يستدعي وجود صفة في الشخص تجعله يتكبر على الآخرين. فالمتكبر لا يتكبر على شخص آخر يملك نفس الصفات التي فيه، أو على شخص آخر يوجد فوقه وأعلى منه، بل لا بد أن تكون فيه صفة لا تتوفر في الشخص الآخر، حتى يتحقق الكبر، لأنه آنذاك يرى أن لديه مرتبة ليست لدى الشخص الآخر.

قسم الغزالي الكبر إلى قسمين رئيسيين، كبر الظاهر وكبر الباطن، فالباطن هو عبارة عن خلق في النفس، والظاهر عبارة عن أعمال تصدر عن الجوارح. وكما أن الغزالي يعتبر دائما أن الأخلاق الباطنية الصادرة عن القلب والنفس هي الأهم، فإنه يرى بأن كبر الباطن هو الأخطر، لأنه مصدر كبر الظاهر الذي تعبر عنه الجوارح والأعمال.

إن الكبر عند الغزالي تترتب عنه أمور كثيرة، لأن الأخلاق الذميمة متلازمة والبعض منها داع إلى البعض لا محالة، كما يقول. ولكن شر الكبر أنه يصبح حجابا يحول دون المرء ودون دخوله الجنة، لأنه يمنعه من أخلاق المؤمنين كلها، وتلك الأخلاق هي أبواب الجنة، لكن الكبر والعجب وعزة النفس تغلق أمام الإنسان باب الجنة. فالتواضع هو رأس الفضائل، وفي ذلك قال تعالى: ﴿قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾ (الزمر ٧٢).

وأخطر أنواع الكبر عند الغزالي هو ذاك الذي يمنع الإنسان من الاستفادة من العلم وقبول الحق واتباعه، فقد أخبر الله سبحانه أن أشد أهل النار عذاباً أشدهم عتياً على الله تعالى، أي تكبرا، فقال: ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمۡ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ عِتِيّٗا﴾ (مريم ٦٩)، وقال تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٞ

وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾ (النحل ٢٢)، وقال عز وجل: ﴿ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴾ (سبأ ٣١)، وقال أيضا: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ (الأعراف ١٤٦).

إذا كان التكبر يستدعي وجود متكبَّر عليه، أي وجود طرف ثان، فإن الغزالي قسم المتكبر عليهم إلى ثلاثة أقسام: التكبر على الله، والتكبر على الرسل، والتكبر على العباد.

فالقسم الأول، أي التكبر على الله سبحانه، هو أفحش أنواع الكبر، ولا مثال له عند الغزالي إلا الجهل المحض والطغيان، وضرب لذلك مثلا من النمرود الذي عاش في عهد النبي إبراهيم عليه السلام، فقد كان يقول لنفسه إنه سيقاتل رب السماء، كما ضرب مثلا بفرعون الذي تحدى الألوهية وقال: ﴿ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ ﴾ [النازعات:٢٤].

القسم الثاني، أي التكبر على الرسل والأنبياء، هو التكبر الذي يجعل الإنسان لا ينقاد لأي مخلوق، ويرى أنه أفضل من الجميع، الأمر الذي يمنعه من التفكير والهداية والتبصر، فيبقى في ظلمة الجهل بسبب كبره، وهو يظن أنه على الحق، لأن نفسه لا تطاوعه في أن يتبع أي نبي.

وقد وردت عدة آيات في القرآن الكريم تصور هذه الفئة من المتكبرين، فقال تعالى: ﴿ قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾ (إبراهيم ١٠)، وقال: ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴾(المومنون ٢٤)، وقال أيضا: ﴿ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ ﴾ (الشعراء ١٥٤)..

أما القسم الثالث من أقسام الكبر فهو التكبر على العباد، وذلك بأن يستعظم الإنسان نفسه ويستحقر الآخرين، ويترفع عليهم ويزدريهم ويرفض

التساوي معهم. وهذا القسم إذا كان أهون من القسمين الآخرين، أي التكبر على الله والتكبر على الرسل، إلا أنه أمر خطير، وذلك لسببين كما يقول الغزالي.

السبب الأول أن الكبر والعز والعظمة والاستعلاء لا يليق إِلَّا بِالْمَلِكِ الْقَادِرِ،حيث يقول أبو حامد:"فأما العبد المملوك الضعيف العاجز الذي لا يقدر على شيء، فمن أين يليق بحاله الكبر؟ فمهما تكبر العبد فقد نازع الله تعالى في صفة لا تليق إلا بجلاله، ومثالُه أن يأخذ الغلام قلنسوة الملك فيضعها على رأسه، ويجلس على سريره، فما أعظم استحقاقه للمقت وما أعظم تهدفه للخزي والنكال، وما أشد استجراءه على مولاه وما أقبح ما تعاطاه".

فالغزالي هنا يشبه الشخص المتكبر على العباد بالرجل الذي وضع على رأسه طربوش الملك وجلس على عرشه وتصور نفسه ملكا، أي أنه يريد تقليد شخص لا يملك صفاته ولا سلطانه، وهذا ما يحصل مع العبد الذي يتكبر على العباد، بينما الله سبحانه هو صاحب الكبرياء، وهو المتكبر، كما في الأسماء الحسنى.

أما السبب الثاني فهو أن رذيلة الكبر تدفع الإنسان إلى مخالفة أوامر الله تعالى، لأن المتكبر إذا سمع الحق من عبد من عباد الله رفض قبوله، وجحد به، وفي ذلك قال تعالى:﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ﴾(فصلت ٢٦).

بين الغزالي أن العجب قرين الكبر، لأن الكبر هو الذي يدعو إلى العجب ويؤدي إليه. يقول الغزالي في هذا المعنى:" اعلم أن آفات العجب كثيرة، فإن العجب يدعو إلى الكبر، لأنه أحد أسبابه كما ذكرناه، فيتولد من العجب الكبر، ومن الكبر الآفات الكثيرة التي لا تخفى، هذا مع العباد، وأما مع الله تعالى فالعجب يدعو إلى نسيان الذنوب وإهمالها، فبعض ذنوبه لا يذكرها ولا يتفقدها لظنه أنه مستغن عن تفقدها فينساها، وما يتذكره منها فيستصغره ولا يستعظمه، فلا يجتهد في تداركه وتلافيه، بل يظن أنه يُغفر له، وأما العبادات

والأعمال فإنه يستعظمها ويتبجح بها ويمن على الله بفعلها، وينسى نعمة الله عليه بالتوفيق والتمكين منها، ثم إذا عجب بها عمي عن آفاتها".

وهنا يبين الغزالي أن الإنسان قد يصيبه العجب بسبب أعماله الصالحة وعبادته، فيغتر بها ويتباهى بتلك الأعمال، فتعود عليه وبالا بسبب عجبه، رغم أنها أعمال صالحة في ذاتها. والواجب عند الغزالي أن يراقب الإنسان أعماله، بحيث يجعلها خالصة لوجه الله دون شوائب، ويرى أن من يقوم بهذه المراقبة هو الشخص الذي يغلب عليه الإشفاق والخوف، ولا يعرف العجب، لأن المعجب بنفسه يغتبر برأيه ويأمن مكر الله وعذابه، ويظن أنه عند الله في أحسن منزلة، وأن له عند الله المكان الرفيع بسبب أعماله، وينسى أن تلك الأعمال الصالحة ما هي إلا نعمة من الله أنعم بها عليه، فواجبه شكرها والتقرب إلى الله بها.

ولعلاج العجب يوصي الغزالي بالتخلق بالأخلاق المضادة له، لأن علاج كل رذيلة يكون بالتحلي بالفضيلة التي تناقضها، وهو الأسلوب التربوي عند أبي حامد الغزالي.

الغرور

كتب أبو حامد الغزالي يقول في باب الغرور من الإحياء: "أما بعد، فمفتاح السعادة التيقظ والقطنة، وَمَنْبَعَ الشَّقَاوَةِ الْغُرُورُ وَالْغَفْلَةُ، فلا نعمة لله على عباده أعظم من الإيمان والمعرفة، ولا وسيلة إليه سوى انشراح الصدر بنور البصيرة، ولا نقمة أعظم من الكفر والمعصية، ولا داعي إليهما سوى عمى القلب بظلمة الجهالة".

فالغرور عند الغزالي سبب إلى الشقاء، لأن المغرور معجب بعمله ويراه أحسن الأعمال وأفضلها، ولذلك جعله الغزالي مضادا للفطنة والتيقظ، لأنهما مصدر السعادة، إذ الواجب على الإنسان أن يكون متيقظا يراقب عمله كل يوم فلا يصاب بالغفلة، ولا يظن أن عمله كامل ليس به نقصان.

إننا نجد الغزالي يقرن الغرور بالهوى والضلال، إذ يرى بأن "الْمَغْرُورُ هُوَ الَّذِي لَمْ تَنْفَتِحْ بَصِيرَتُهُ لِيَكُونَ بِهِدَايَةِ نَفْسِهِ كَفِيلًا، وَبَقِيَ فِي الْعَمَى فَاتَّخَذَ الهوى قائداً والشيطان دليلاً"، ثم أورد قوله تعالى: ﴿ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْأَخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ (الإسراء ٧٢)، فالغرور هو أم الشقاوات ومنبع المهلكات، ولا بد من الحزم والبصيرة حتى يتجنبه الإنسان.

لقد قسم الغزالي أصناف الناس الذين هم أشد الناس عرضة للغرور إلى أربعة أصناف، يرى بأنهم اغتروا بمبادئ الأمور الجميلة في ظواهرها القبيحة في سرائرها، وهو يقول إن هناك أقواما كثيرين كانوا عرضة للغرور، بحيث لا يمكن إحصاؤهم، لكنه يقدم مجرد أمثلة حتى تتضح الصورة:

الصنف الأول من العلماء

الصنف الثاني من العُباد

الصنف الثالث من المتصوفة

الصنف الرابع من أرباب الأموال.

والمغترون من كل صنف من هذه الأصناف كثيرون، وقد تعرضوا للغرور من نواح كثيرة، فمنهم من رأى المنكر معروفا، ومثاله عند الغزالي من يزخرف المساجد من المال الحرام، ومنهم من لم يميز بين ما يسعى لنفسه وبين ما يسعى لله، كالواعظ الذي غرضه القبول والجاه فقط، ومنهم من يترك الأهم ويشتغل بغيره، ومنهم من يترك الفرض ويشتغل بالنافلة، ومنهم من يترك اللباب ويشتغل بالقشر، كالذي يكون همه في الصلاة مقصوراً على تصحيح مخارج الحروف، إلى غير ذلك من مداخل لا تتضح إلا بتفصيل الفرق وضرب الأمثلة، كما يقول.

يستشهد الغزالي ببعض الآيات في ذم الغرور واعتباره من الرذائل والقيم الفاسدة في الحياة الاجتماعية والفردية، من ذلك قوله تعالى: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾﴾ [لقمان:٣٣]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِيُّ﴾ [الحديد:١٤]، ثم يعلق قائلا بأن ما ورد في القرآن الكريم عن الغرور كاف في ذمه والنهي عنه.

ولقد اعتبر الغزالي أن الغرور مرادف للجهل، لأن مصدره الأساسي هو الجهل بحقيقة الله سبحانه وبمنزلة الإنسان في الكون، ولذلك كلما كان هناك ذم للجهل كان معه ذم الغرور، حيث يقول: "وكل ما ورد في فضل العلم وذم الجهل فهو دليل على ذم الغرور، لأن الغرور عبارة عن بعض أنواع الجهل، إذ الجهل هو أن يعتقد الشيء ويراه على خلاف ما هو به، والغرور هو جهل، إلا أن كل جهل ليس بغرور، بل يستدعي الغرور مغروراً فيه مخصوصاً، ومغروراً به وهو الذي يغره".

ويعرف الغزالي الغرور بأنه اتباع النفس لكل ما يوافق هواها ويميل إليه الطبع الإنساني، سواء بسبب الخداع أو بسبب الشبهات، ويقول في هذا

الباب:" فالغرور هو سكون النفس إلى ما يوافق الهوى ويميل إليه الطبع عن شبهة وخدعة من الشيطان، فمن اعتقد أنه على خير إما في العاجل أو في الآجل عن شبهة فاسدة فهو مغرور، وأكثر الناس يظنون بأنفسهم الخير وهم مخطئون فيه، فأكثر الناس إذا مغرورون وإن اختلفت أصناف غرورهم واختلفت درجاتهم، حتى كان غرور بعضهم أظهر وأشد من بعض".

لقد ميز الغزالي بين نوعين من الغرور، سمى الأول منهما غرور الكفار، وسمى الثاني غرور العصاة والفاسقين، وبين طبيعة كل نوع منهما.

أما غرور الكفار فقد ضرب له مثلا بمن يقولون في أنفسهم إنه لو كان هناك معاد ويوم آخر، فهم أحلق به من غيرهم وأكثر حظا وأسعد الناس حالا فيه، مثال ذلك ما ورد في سورة الكهف في الحوار بين الرجلين أحدهما كانت له جنتان والآخر كان مؤمنا، حيث قال تعالى:﴿ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾ [الكهف:٣٦]، فقد اعتقد هذا الشخص أن ما يملكه لن يفنى أبدا، وأنه إذا ما مات وكان هناك يوم آخر فسوف يجد فيه ما هو أكثر مما لديه، وهذا عند الغزالي غرور، لأن هذا الشخص اغتر بما عنده.

وكذلك قوله تعالى عن العاص بن وائل الذي ظن أنه إذا مات سيجد المال والولد مثلما لديه في الدنيا، وفيه قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾﴾ (مريم ٧٧)، ويقول الغزالي مفسرا:"والمغرور إذا أقبلت عليه الدنيا ظن أنها كرامة من الله، وإذا صُرفت عنه ظن أنها هوان"، ويرى أن علاج هذا النوع من الغرور هو معرفة دلائل الكرامة والهوان إما بالبصيرة أو بالتقليد، فالبصيرة أن يعلم بأن حب الدنيا يبعد عن حب الله، والتقليد أن يتبع ما أنزل في القرآن وما ورد في السنة.

هذا عن غرور الكفار كما ورد عند الغزالي، أما عن غرور العصاة والفاسقين فهو يتمثل في اعتقاد بعض المؤمنين أن الله عفو كريم، وأنهم يتوكلون على عفوه

وكرمه يوم القيامة، دون أن يعملوا الأعمال الصالحة ودون أن يقولوا بما يتوجب عليهم من العبادة والقربات، بل يعوضون ذلك بالتمني والرجاء في رحمة الله يوم القيامة، ويرون أن معاصيهم لا تساوي شيئا أمام رحمة الله الواسعة، وأنهم مؤمنون وموحدون، لذلك فإن إيمانهم سيكون لهم شفيعا يوم القيامة حتى وإن لم يصحبه عمل صالح. ويضرب أبو حامد الغزالي مثلا لهؤلاء بمن يتمسكون بصلاح آبائهم السابقين وعلو رتبتهم، مثل اغترار بعض الناس بأنسابهم، حيث يعتقدون أن صلاح آبائهم سوف ينفعهم في الآخرة، ويظنون أن الله طالما أنه يحب آباءهم بسبب صلاحهم فإنه سيحبهم هم أيضا، رغم أن سيرتهم ليست سيرة آبائهم في الخوف والتقوى والورع، وهذا من الغرور كما يراه الغزالي.

ويرجع الغزالي إلى القرآن الكريم الذي يتخذه مقياسا لفقه الأخلاق والقيم الرشيدة، وميزانا للتمييز بين الصلاح والفساد، فيضرب مثلا لما حصل للنبي نوح عليه السلام مع ابنه حين طلب منه أن يصعد معه إلى السفينة، لكنه رفض واعتقد أنه سيأوي إلى الجبل وأن الجبل سوف ينقذه. وقد قال تعالى في هذه القصة: "﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [هود:٤٥-٤٧].

وهناك نوع آخر من الغرور يميزه أبو حامد الغزالي عن النوعين السابقين، وهذا النوع من الغرور قد يحصل لبعض المتفقهين في الدين الذين يجهلون الأصول. ويضرب الغزالي مثلا لذلك بالمريض الذي يعاني من على البواسير مثلا حتى إنه يشرف على الهلاك بسبب مرضه المزمن، لكنه يشتغل بتعلم دواء الاستحاضة ويكرر ذلك ليلا ونهارا، رغم أنه رجل لا يحيض ولا يُستحاض، ولكنه يقول في نفسه إنه ربما يأتي يوم تسأله امرأة عن علة الاستحاضة، فيكون عالما بها. فهذا من كثرة غروره ترك ما يهمه وانصرف إلى ما لا ينفعه من العلوم.

وكذلك يحصل الأمر نفسه مع بعض مدعي الفقه، الذي يحبون الدنيا ويتبعون الشهوات والحسد والكبر والرياء وسائر المهلكات الباطنة، وربما خطفه الموت قبل التوبة والاستغفار. فهذا الصنف من المتفقهة يهتم بعلم السلم والإجارة والظهار واللعان والجراحات والديات والدعاوي والبينات، وبكتاب الحيض وهو لا يحتاج إلى شيء من ذلك قط في عمره كله، ولكنه يتعلم ذلك لأن تلك المعارف تعطيه الشهرة والمال والجاه، فهو لا يتعلم الدين لنفسه، وإنما يتعلمه للناس لكي يحصل على متاع الدنيا، ويهتم بفرض الكفاية ويترك فرض العين، فهذا عند الغزالي نيته فاسدة لأنهم لا يتعلم العلم لوجه الله بل لأغراضه الخاصة. وقد يصل الأمر بهذا الصنف إلى الطعن في العلماء والفقهاء والمحدثين.

الفقر والزهد

يعتبر مدح الفقر والزهد عند الصوفية وأصحاب السلوك في التاريخ الإسلامي أهم مميزات هذه المدرسة التربوية، التي يمثلها العديد من العلماء والفقهاء والزهاد. ذلك أن أصحاب التربية والسلوك والتصوف يرون أن الفقر والزهد من أهم الصفات التي يتعين على طالب الحق أن يتصف بها، لأنهما مفتاح التجرد للعبادة؛ فالغنى وحب الدنيا يجعلان قلب الإنسان مشغولا بأمور دنيوية قد تحول بينه وبين العبادة الخالصة لوجه الله، وتمنعه من التفرغ للسلوك الإيماني.

وقد بين عبد الرحمان بن خلدون هذا الاتجاه في التصوف الإسلامي عندما قال في مقدمته عن التصوف: "هذا العلم من العلوم الشرعية الحادثة في الملة، وأصله أن طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم، طريقة الحق والهداية. وأصلها العكوف على العبادة، والانقطاع إلى الله تعالى، والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه، والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة".

لقد أفرد أبو حامد الغزالي في كتابه "إحياء علوم الدين" بابا خاصا عن الزهد والتصوف، وقد عرف فيه الفقر تعريفا عجيبا ربط فيه بين الفقر والحاجة، بحيث إن الفقر لا يحصل لدى الإنسان إلا عند شعوره بحاجة معينة، أما إذا لم تكن هناك حاجة فلا يوجد فقر، وهكذا كلما زادت حاجات الإنسان كلما ازداد فقره، وكلما نقصت حاجته كلما قل فقره وازداد غناه.

ومن عجيب هذا التفسير عند حجة الإسلام أنه سابق بقرون عدة على تحليل الرأسمالية لدى مدرسة فرانكفورت ونقاد الحداثة، فهم يرون بأن

وظيفة الرأسمالية خلق احتياجات زائدة للإنسان لكي تصبح احتياجات ضرورية ويتحول بعد ذلك إلى عبد لها، بحيث يشعر بالافتقار عند افتقادها، فكلما ازدادت الحاجيات التي تخلقها الرأسمالية كلما ازداد إحساسه بالفقر؛ وقد شرح هذا بعمق الفيلسوف الفرنسي رونيه غينون الذي اعتنق الإسلام وحول اسمه إلى الشيخ عبد الواحد يحيى، وذلك في كتابه :أزمة العالم المعاصر" الذي نشر في بداية خمسينات القرن الفائت.

يقول الغزالي في هذا المعنى:"اعلم أن الفقر عبارة عن فقد ما هو محتاج إليه، أما فقد ما لا حاجة إليه فلا يسمى فقرا. وإن كان المحتاج إليه موجوداً مقدوراً عليه، لم يكن المحتاج فقيرا".

والغزالي يرى أن عدم الوجود هو الفقر بعينه، وأن من يكتفي بوجود الله فهو الغني، وأن هناك غنيا واحدا هو الله سبحانه وتعالى، ومن عداه فهم فقراء إليه، كما قال تعالى:"يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد"، وقال تعالى:"والله الغني وأنتم الفقراء".

وقد بينت النصوص القرآنية والحديثية منزلة الفقر، ومدحت هذه النصوص الفقر والزهد. فمن الآيات قوله تعالى:"للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم"، وقال تعالى "للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضرباً في الأرض"، ويعلق الغزالي على هاتين الآيتين قائلا:"ساق الله سبحانه الكلام في معرض المدح، ثم قدم وصفهم بالفقر على وصفهم بالهجرة والإحصار، وفيه دلالة ظاهرة على مدح الفقر". والمعنى المقصود من كلام الغزالي أن الله تعالى عندما وصف المهاجرين بدأ بصفة الفقر أولا، قبل صفتهم كمهاجرين، وهذا يعني مدح الفقر في حقهم.

بين الغزالي أن الناس اختلفوا في تفضيل الفقر والزهد على الغنى، حيث قال أبو العطاء السكندري: "الغني الشاكر القائم بحقه أفضل من الفقير

الصابر". ويرى أن الفقر والغنى إذا تم أخذهما بشكل مطلق، دون النظر إلى حاجات الإنسان، فإن الآثار، أي الآيات والأحاديث، تفضل الفقر على الغنى.

ويرى الغزالي أن حقيقة الفقر والغنى فيها تفصيلات لا بد من التنبيه عليها، حتى لا تختلط الأمور على العامة، فيظنون أن الفقر في حد ذاته أفضل من الغنى في حد ذاته، دون الأخذ بعين الاعتبار للظروف والحيثيات المحيطة بحياة الإنسان. ومن هنا يرى أن هناك نوعين من هذه التفصيلات: النوع الأول يتعلق بالفقير الصابر على فقره، الذي لا يحرص على طلب المال، بل هو قانع راض بما آتاه الله، وغني آتاه الله المال لكنه ينفقه في الخيرات وأعمال البر والخير، ولا يحرص على جمع المال لذات المال؛ فهذان الشخصان متساويان، لأن الفقير نفعه فقره بالصبر، والغني نفعه غناه بالإنفاق.

أما النوع الثاني فيتعلق بالفقير الحريص على البحث عن المال، والغني الحريص على جمع المال، فكلاهما لا ينتفع بما لديه، لأن الفقير لم ينفعه فقره والغني لم ينفعه ماله، فهما متساويان في الحرص على المال. أما الغني الذي يتمتع بماله وإن كان في المباح ولا يتصدق به ولا يصنع به أعمال الخير والبر، فهذا لا يتساوى مع الفقير الزاهد القنوع.

ويرجع أبو حامد الغزالي إلى مرحلة النبوة، حيث طرحت قضية تفضيل الفقر على الغنى بين الصحابة والمسلمين في زمن النبي ﷺ، فظن الفقراء أن الأغنياء أفضل منهم وأقرب إلى الله لأن لديهم الأموال التي ينفقونها في سبيل الله فينالون الجنة.

فقد روي أن الفقراء شكَوْا إلى النبي ﷺ سَبْق الأغنياء إلى الخيرات والصدقات والحج والجهاد، بينما لا يستطيعون هم فعل نفس الأمور بسبب فقرهم، فعلمهم النبي ﷺ كلمات في التسبيح، وقال لهم إنهم ينالون بتلك الكلمات أكثر مما يناله الأغنياء بمالهم، ولكن الأغنياء صاروا هم أيضا يقولون تلك

الكلمات، فرجع الفقراء إلى النبي ﷺ وأخبروه بذلك، فقال عليه السلام: "ذلك فضل الله يوتيه من يشاء".

وقد فسر الغزالي كلام النبي ﷺ على غير الظاهر الذي يُفهم منه، فقول النبي "ذلك فضل الله يوتيه من يشاء"، يعني الفقراء وليس الأغنياء، حيث قال الغزالي: "أن ثواب الفقير في التسبيح يزيد على ثواب الغني وأن فوزهم بذلك الثواب فضل الله يؤتيه من يشاء".

وفي حديث آخر أن الفقراء ذهبوا إلى النبي وشكوا إليه فضل الأغنياء، وأنهم ذهبوا بالخيرات كلها، فذكر لهم النبي أن الفقراء يسبقون الأغنياء بثلاثة أمور، أولها أنهم يدخلون الجنة قبلهم، وثانيها أن في الجنة غرفا لا يدخلها إلا نبي فقير أو شهيد فقير أو مؤمن فقير، والثالثة أن الفقير والغني إذا سبحا الله معا، فإن ثواب الفقير يكون أكثر من ثواب الغني.

وقد تحدث الغزالي عن الزهد، وهو قرين الفقر عند الصوفية وأصحاب التربية والسلوك، وقد عرف الزهد في جملة بسيطة فقال إن علامة الزهد "استواء الفقر والغنى والعز والذل والمدح والذم وذلك لغلبة الأنس بالله". فالأنس بالله تعالى وعدم وجود شريك له يشغل الإنسان عن عبادته، هو الزهد. ويقول الغزالي أيضا: "ولا يتم الزهد إلا بالزهد في جميع رغبات الدنيا، فكل من ترك من الدنيا شيئاً مع القدرة عليه خوفاً على قلبه وعلى دينه، فله مدخل في الزهد بقدر ما تركه، وآخره أن يترك كل ما سوى الله".

ويتوسع في تعريف الزهد فيقول: "فالحاصل أَنَّ الزُّهْدَ عِبَارَةٌ عَنِ الرَّغْبَةِ عَنْ حُظُوظِ النفس كلها، ومهما رغب عن حظوظ النفس رغب عن البقاء في الدنيا، فقصر أمله لا محالة، لأنه إنما يريد البقاء ليتمتع ويريد التمتع الدائم بإرادة البقاء، فإن من أراد شيئاً أراد دوامه، ولا معنى لحب الحياة إلا حب دوام ما هو موجود أو ممكن في هذه الحياة، فإذا رغب عنها لم يردها". فالزهد هنا

عند الغزالي يعني التخلي عن حظوظ النفس وشهواتها، وكلما تخلى الإنسان عنها أصبح أقل اهتماما بالدنيا، لأن حب الدنيا مرتبط بحب هذه الشهوات وحب بقائها.

وشرح الغزالي مقام الزهد في حياة المسلم فقال: "اعلم أن الزهد في الدنيا مقام شريف من مقامات السالكين، وينتظم هذا المقام من علم وحال وعمل كسائر المقامات، لأن أبواب الإيمان كلها كما قال السلف ترجع إلى عقد وقول وعمل".

وقد ربط الغزالي بين الزهد والعلم، وبينه وبين الحال، وبينه وبين العمل. فالعلم هو الذي يُثمر الحال، والحال هو الذي يؤدي إلى العمل. فالعلم الحقيقي الذي يدفع إلى الزهد وترك محبة الدنيا هو العلم بأن الشيء المتروك حقير القيمة، فمن علم أن ما عند الله هو الذي يبقى، وأن الآخرة خير وأحسن تفضيلا، ترك الدنيا واختار الزهد واختار الآخرة على الدنيا.

ويشبه الغزالي الدنيا بالثلج، فيقول: "فالدنيا كالثلج الموضوع في الشمس، لا يزال في الذوبان إلى الانقراض، والآخرة كالجوهر الذي لا فناء له، فبقدر قوة اليقين والمعرفة بالتفاوت بين الدنيا والآخرة تقوى الرغبة في البيع والمعاملة، حتى إن من قوي يقينه يبيع نفسه وماله، كما قَالَ اللهُ تَعَالَى "إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة"، ثم بين أن صفقتهم رابحة فقال تعالى: "فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به"، فليس يحتاج من العلم في الزهد إلا إلى هذا القدر".

واستشهد الغزالي بالآية الكريمة: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧﴾ [الكهف:٧]، وقال: قيل معناه أيهم أزهد فيها، فوصف الزهد بأنه من أحسن الأعمال.

الإخلاص

يعد الإخلاص من الفضائل المحمودة في جميع الأعمال، وخاصة في العبادات التي هي رأس هذه الأعمال الوظائف. ومن الآيات التي تحث على الإخلاص قوله تعالى: " ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البيِّنة:٥]مخلصين له الدين"، وقوله:﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَٱعۡتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخۡلَصُواْ دِينَهُمۡ لِلَّهِ﴾ [النساء:١٤٦]، وقوله سبحانه:﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُ﴾ [الزُّمَر:٣]. وعن مصعب بن سعد عن أبيه قال: ظن أبي أن له فضلاً على من هو دونه مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهَّ ﷺ، فقال النبي ﷺ "إنما نصر الله عز وجل هذه الأمة بضُعفائها ودعوتهم وإخلاصهم"،وعن الحسن قال:قَالَ رَسُولُ اللهَّ ﷺ:"يقول الله تعالى: الإخلاص سر من سري استودعته قلب من أحببت من عبادي"، وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه:"لاتهتموا لِقِلَّةِ الْعَمَلِ، وَاهْتَمُّوا لِلْقَبُولِ، فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لِمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ: أخلص العمل يَجْزِك منه القليل".

ولأهمية الإخلاص في الأعمال أفرد أبو حامد الغزالي في كتابه بابا سماه"الباب الثاني في الإخلاص وفضيلته وحقيقته ودرجاته"، عرف فيه بالإخلاص ومراتبه. فالإخلاص عند الغزالي هو كل عمل خالص صاف لا يختلط معه عمل غيره، ولذلك قال:"اعلم أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ يُتَصَوَّرُ أَنْ يَشُوبَهُ غَيْرُهُ، فَإِذَا صَفَا عَنْ شَوْبِهِ وَخَلُصَ عَنْهُ سُمِّيَ خالصاً، ويسمى الفعل المصفى المُخلَص إخلاصاً، قال الله تعالى:"من بين فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين". فإنما خلوص اللبن أن لا يكون فيه شوب من الدم والفرث، ومن كل ما يمكن أن يمتزج به. وَالْإِخْلَاصُ يُضَادُّهُ الْإِشْرَاكُ، فَمَنْ لَيْسَ مُخْلِصًا فَهُوَ مشرك، إلا أن الشرك درجات، فالإخلاص في التوحيد يضاده التشريك في الإلهية، والشرك منه خفي

ومنه جلي، وكذا الإخلاص، والإخلاص وضده يتواردان على القلب، فمحله القلب، وإنما يكون ذلك في القصود والنيات".

ونلاحظ هنا أن الغزالي يجعل الإخلاص نوعين، إخلاص جلي وإخلاص خفي، ويربط الإخلاص بالنية، أي أن يكون العمل خالصا لله لا يقصد سوى رضا الله. والإخلاص يعني عند الغزالي التجرد، فقد يعمل الإنسان عملا يبدو في الظاهر خالصا، ولكنه يقصد من ورائه الرياء والسمعة، فهذا هو الإخلاص الجلي، أي إخلاص الظاهر دون الباطن.

ويضرب الغزالي بعض الأمثلة التي تبين أهمية الإخلاص والتجرد في العمل، يظهر من خلالها أن الإخلاص هو تجريد الهدف، أي أن يكون الهدف هو إرضاء الله سبحانه لا حظوظ النفس ورغباتها، إذ يركز على ما يسميه البواعث أو الدوافع، فمن عمل عملا مطابقا للشرع مثلا ولكن الباعث عليه لغاية خاصة، فهو غير مخلص في العمل.

مثال ذلك عند الغزالي الصوم، فالصوم مشروع في الإسلام، وقد يصوم المرء طلبا للأجر والثواب، ولكن إذا صام الإنسان من أجل الحمية ولأهداف صحية فقط لا لوجه الله أو للتقرب إليه، كان صومه باطلا من الناحية الشرعية. مثال آخر، وهو إذا أعتق إنسان عبدا من العبيد، ليس طلبا لمرضاة الله، بل للتخلص من الكلفة المادية التي يشكلها عليه ذلك العبد، أو لسوء أخلاقه، أو لأي سبب من الأسباب، فهذا الشخص يكون قد أعتق العبد، والعتق من أعمال البر في الإسلام، ولكنه لا ينال أجرا على هذا العتق، لأن غايته لم تكن وجه الله.

ومثال آخر، وهو أن يذهب المرء إلى الحج، ويكون هدفه السفر فقط وتغيير الجو أو التجارة أو غير ذلك من الغايات والمطالب الدنيوية الخاصة، فهذا الشخص قد قام بالحج، ولكنه لا ينال أجر الحاج وثوابه، لأنه هدفه لم يكن الفريضة بل كان لأغراض خاصة. وهذا ما يسميه العلماء بالمقاصد.

إن الغـزالي يـرى أن عـلاج هـذا الأمـر والتحـلي بالإخـلاص في العمـل، لا يحصـل إلا بكـسر حظـوظ النفـس وَقَطْـعَ الطَّمَـعِ عَـنِ الدُّنْيَـا وَالتَّجَـرُّدَ لِلْآخِـرَةِ، بِحَيْـثُ يَغْلِـبُ ذَلِـكَ عـلى القلـب، فـإذ ذَاكَ يَتَيَـسَّرُ الْإِخْـلَاصُ.

فهنـاك مـن الأعـمال مـا يقـوم بـه الإنسـان ويتعـب فيـه ويؤديـه بمشـقة، ويظـن أنهـا أعـمال خالصـة لوجـه الله، ويصـاب بالغـرور بسـبب تأدية تلـك الأعـمال، ولكن نتيجتهـا تكـون صفـرا. وهنـا يـضرب الغـزالي مثـلا عـن شـخص روى أنـه صـلى في الصـف الأول في المسـجد ثلاثـين سـنة، وذات مـرة تأخـر عـن الصـلاة فحـضر إلى المسـجد فوجـد أن الصـف الأول ممتلـئ، فصـلى في الصـف الثـاني، ولكنـه شـعر بالحـرج أمـام النـاس لأنهـم رأوه في الصـف الثـاني، قال: "فعرفـت أن نظـر النـاس إلي في الصـف الأول كان مسرتي، وسـبب اسـتراحة قلبـي مـن حيـث لا أشـعر"، وهـذا هـو غيـاب الإخـلاص عنـد أبي حامـد الغـزالي.

ويتسـاءل الغـزالي: هـل الإنسـان الـذي يقـوم بعمـل صالـح ولكنـه يريـد بـه الريـاء فقـط ولا يريـد بـه وجـه الله، هـل لـه أجـر في الإسـلام؟ فـيرى أن ثـواب هـذا الشـخص لا يسـاوي ثـواب الشـخص الـذي قـام بنفـس العمـل لكنـه لم يكـن يطمع في الكسـب أو الغنيمـة أو رضى النـاس، لأن الطمـع في الغنيمـة يُنقـص الثـواب.

ويـضرب مثـلا لذلـك برجـل سـأل النبـي ﷺ عمـن يعمـل معروفـا أو يتصـدق ولكنـه يحـب أن يشـكره النـاس وأن ينـال الأجـر في نفـس الوقـت، فلـم يـدر النبـي ﷺ مـا يجيبـه حتـى نزلـت الآيـة: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهـف:١١٠].

يرتبـط الإخـلاص بالصـدق، لأن العمـل الخالـص هـو العمـل الصـادق الـذي يصـدر عـن نيـة خالصـة لوجـه الله. لذلـك ربـط الغـزالي بـين الإخـلاص والصـدق.

وقـد قسـم الصـدق إلى سـتة أقسـام: صـدق في القـول وصـدق في النيـة والإرادة وصـدق في العـزم

وصدق في الوفاء بالعزم، وصدق في العمل وصدق في تحقيق مقامات الدين كلها، فمن اتصف بالصدق في جميع ذلك فهو صِديق لأنه مبالغة في الصدق.

كما أن الصدق أيضا درجات، الأول صدق اللسان، وذلك لا يكون إلا في الإخبار أو فيما يتضمن الإخبار وينبه عليه، والخبر إما أن يتعلق بالماضي أو بالمستقبل، وفيه يدخل الوفاء بالوعد والخُلف في، وهذا هو أشهر أنواع الصدق وأظهرها عند أبي حامد.

النوع الثاني من الصدق هو الصدق فِي النِّيَّةِ وَالْإِرَادَةِ، وَيَرْجِعُ ذَلِكَ إِلَى الْإِخْلَاصِ، وَهُوَ أَنْ لَا يَكُونَ لَهُ بَاعِثٌ فِي الْحَرَكَاتِ وَالسَّكَنَاتِ إِلَّا اللهُ تَعَالَى، فَإِنْ مَازَجَهُ شَوْبٌ مِنْ حُظُوظِ النَّفْسِ بَطَلَ صِدْقُ النِّيَّةِ، وصاحبه يجوز أن يسمى كاذباً.

النوع الثالث صدق العزم، فإن الإنسان قد يقدم العزم على العمل فيقول في نفسه مثلا: "إن رزقني الله مالاً تصدقت بجميعه أو بشطره، أو إن أعطاني الله تعالى وِلَايَةً عَدَلْتُ فِيهَا وَلَمْ أَعْصِ اللهَ تَعَالَى بظلم وميل إلى خلق"، فهذه العزيمة إن كانت حقيقية كان صاحبها صادقا.

بقي لنا الصدق الرابع، وهو الصدق فِي الْوَفَاءِ بِالْعَزْمِ، فَإِنَّ النَّفْسَ قَدْ تَسْخُو بِالْعَزْمِ فِي الْحَالِ، إِذْ لَا مَشَقَّةَ فِي الوعد والعزم، ولكنه قد تنتهي عزيمته إذا هجمت عليه الشهوات وحظوظ النفس، فلم يستطع الوفاء بعزيمته، فصاحبها لا يكون صادقا، ولذلك قال تعالى: ﴿رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِ﴾ [الأحزاب:٢٣].

الصدق الخامس فِي الْأَعْمَالِ،ويعرفه الغزالي قائلا: "وَهُوَ أَنْ يَجْتَهِدَ الإنسان حَتَّى لَا تَدُلَّ أَعْمَالُهُ الظَّاهِرَةُ عَلَى أَمْرٍ فِي بَاطِنِهِ، لا يتصف هو به". ومثال ذلك أن يكون الشخص في الصلاة ويظهر عليه الخشوع في الظاهر، ولكنه في الباطن مشغول بالتفكير وغافل عن الصلاة، وهذا السلوك عند الغزالي ليس فيه أي رياء، لأن صاحبه لا يريد ترضية الناس، ولكنه عمل غير صادق لأن صاحبه حقق شروط الظاهر لكنه لم يحقق شروط الباطن.

أما الصدق السادس والأخير، والذي هو أعلى درجات الصدق عند أبي حامد، فهو الصدق في مقامات الدين، كالصدق في الخوف والرجاء والتعظيم والزهد والرضا، والتوكل والحب وسائر هذه الأمور.

ويرى الغزالي في هذا الإطار أن مقامات الصدق ودرجاته لا نهاية لها، فقد يكون الإنسان صادقا في بعض الأمور ولا يكون صادقا في أمور أخرى، وكلما تدرج المرء في درجات الصدق ومراتبه كلما حقق الإخلاص أكثر، حتى يسمى صديقا، أي كثير الصدق، كما سمي الخليفة الثاني أبو بكر الصديق رضي الله عنه بهذا الإسم لأنه كان صادقا ومصدقا أيضا.

التفكر

التفكر من الأمور المهمة في حياة الإنسان، لأن التفكر هو الوحيد الذي يميز الإنسان عن باقي المخلوقات، ويدل على أن له عقلا يفكر به. ولذلك دعا القرآن والسنة إلى التفكر والتدبر في عشرات الآيات والأحاديث، فقال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ﴾ [العنكبوت:٢٠]، وقال: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾[الغاشية:١٧-٢٠]، وقال أيضا: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [يونس:٢٤]، وقال عز من قائلا: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾ [الرعد:٣]"، وغير هذه من الآيات التي تحث على التفكر والتدبر والتأمل والنظر.

ومن الأحاديث النبوية قوله ﷺ: "تفكروا في خلق الله ولا تتفكروا في الله، فإنكم لن تقدروا قدره"، وقوله ﷺ: "فِكْرَةُ سَاعَةٍ خَيْرٌ مِنْ عِبَادَةِ سِتِّينَ سَنَةً".

لقد أفرد أبو حامد الغزالي في كتاب "إحياء علوم الدين" بابا خاصا للتفكر والتدبر، شرح فيه معاني هذه العبارات المرتبطة بالتفكر والتفكير، وأهمية التفكر وأنواعه وثمراته.

وقد بين الغزالي أن عبارات التدبر والتأمل والتفكر عبارات مترادفة على معنى واحد ليس تحتها معان مختلفة، بل هي تدل على نفس المعاني، ولكن ميز بين معنى التذكر والاعتبار، حيث ذكر بأن لها معاني مختلفة وإن كان أصل التسمية واحدا، وذلك مثل قولنا السيف والمهنّد والصارم، فهي كلها عبارات تدل على مسمى السيف، ولكن كل تسمية لها اعتبار مختلف عن التسمية الأخرى، فالصارم يدل على السيف من حيث هو قاطع، والمهند يدل عليه من حيث نسبته إلى موضعه وهي الهند، والسيف يدل دلالة مطلقة من غير إشعار بهذه الأوصاف.

يقول: "فكذلك الاعتبار ينطلق على إحضار المعرفتين، من حيث إنه يعبُر منهما إلى معرفة ثالثة وإن لم يقع العبور، ولم يمكن إلا الوقوف على المعرفتين، فيطلق عليه اسم التذكر لا اسم الاعتبار. وأما النظر والتفكر فيقع عليه من حيث إن فيه طلب معرفة ثالثة، فمن ليس يطلب المعرفة الثالثة لا يسمى ناظرا. فكل متفكر فهو متذكر وليس كل متذكر متفكرا".

ومعنى كلام الغزالي أن الاعتبار لا بد له أولا من التذكر، والتذكر لا بد له من معرفة سابقة، لأن الإنسان لا يمكن أن يتذكر إذا لم يكن يخزن علما معينا في ذاكرته، ومن خلال هاتين العمليتين، أي التذكر والاعتبار، يصل الإنسان إلى المعرفة، وهو ما يسميه الغزالي بالعبور، وهي عبارة مشتقة من الاعتبار.

أما فائدة التذكر والتذكار عند الغزالي فهي تكرار المعارف في القلب، حتى تترسخ ولا تُمحى، بينما فائدة التفكر تكثير العلم واستجلاب معرفة ليست حاصلة لدى الإنسان. فهذا هو الفرق بين التذكر والتفكر عند الإمام الغزالي.

ويرى الغزالي أيضا أن المعارف إذا اجتمعت في القلب وتراكمت فيه بطريقة معينة، أو منهج معين كما نقول اليوم، أدت إلى إنتاج معرفة جديدة، لذلك يقول الغزالي إن "المعرفة نتاج المعرفة"، مشيرا إلى أنه "إذا حصلت معرفة أخرى وازدوجت مع معرفة أخرى حصل من ذلك نتاج آخر". ويرى الغزالي أن هذه الطريقة تؤدي إلى زيادة العلوم باستمرار، ولا ينقضي ذلك إلا بالموت، أو بوجود عوائق وعقبات تمنع الإنسان من استثمار العلوم وتحقيق التفكر.

يسمي الغزالي العلوم برأس المال، حيث يقول: "وأما أكثر الناس فإنما منعوا الزيادة في العلوم لفقدهم رأس المال، وهو المعارف التي بها تُستثمر العلوم، كاللذي لا بضاعة له، فإنه لا يقدر على الربح، وقد يملك البضاعة ولكن لا يحسن صناعة التجارة فلا يربح شيئا، فكذلك قد يكون معه من المعارف ما هو رأس مال العلوم، ولكن ليس يحسن استعمالها وتأليفها وإيقاع الازدواج المفضي إلى النتاج فيها".

وهناك طريقتان عند الغزالي لاستثمار العلوم واستعمالها، الطريقة الأولى تكون بنور إلهي يحصل بالفطرة، كما هو الحال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، والطريقة الثاني تكون بالتعلم والممارسة وهو الأكثر.

ويرى الغزالي أن هناك ظاهرة لدى الإنسان بشكل عام، حيث يمكن أن تحصل لديه بعض المعارف لكنه لا يشعر بكيفية حصولها، ولا يقدر على التعبير عن تلك الحالة، لأنه لا يمارس صناعة العلم والتعبير. فكم من شخص مثلا يعلم علما يقينيا أن الآخرة أولى بالتفضيل، ولكن لو سُئل عن سبب تلك المعرفة لا يقدر على الجواب، مع أنه لم تحصل له تلك المعرفة إلا عن طريق المعرفتين السابقتين، أي التفكر والاعتبار.

غير أن التفكر يتعلق بالعلم فقط وليس العمل، ولكنه هو الطريق الأساسي إلى العمل، حيث يقول الغزالي: "فَالْفِكْرُ إِذَنْ هُوَ الْمَبْدَأُ وَالْمِفْتَاحُ لِلْخَيْرَاتِ كُلِّهَا، وهذا هو الذى يكشف لك فضيلة التفكر وأنه خير من الذكر والتذكر، لأن الفكر ذكر وزيادة، وذكر القلب خير من عمل الجوارح، بل شرف العمل لما فيه من الذكر".

ولكن الغزالي يرى أن التفكر في حد ذاته عمل، بل من أفضل الأعمال، فهو يقول: "التفكر أفضل من جملة الأعمال، ولذلك قيل "تفكر ساعة خير من عبادة سنة". فقيل هو الذى ينقل من المكاره إلى المحاب ومن الرغبة والحرص إلى الزهد والقناعة، وقيل هو الذى يُحدث مشاهدة وتقوى، ولذلك قال تعالى ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ [طه:١١٣]. وإن أردت أن تفهم كيفية تغير الحال بالفكر فمثاله ما ذكرناه من أمر الآخرة، فإن الفكر يعرفنا أن الآخرة أولى بالإيثار، فإذا رسخت هذه المعرفة يقينا في قلوبنا تغيرت القلوب إلى الرغبة في الآخرة والزهد في الدنيا". وحسب الغزالي فإنه إذا حصل العلم في القلب تغير حال القلب، وإذا تغير حال القلب تغيرت أعمال الجوارح.

والفضائل عند أبي حامد أربع:

إحداها الحكمة وقوامها في الفكرة.

والثانية العفة وقوامها في الشهوة.

والثالثة القوة وقوامها في الغضب.

أما الفكر فليس مجرد تقليب العقل في الأشياء، وإنما هو عملية تركيب بين جزئين تؤدي إلى إنتاج المعرفة، إذ يقول: "اعلم أن معنى الفكر هو إحضار معرفتين في القلب ليستثمر منهما معرفة ثالثة".

ومثاله أن من مال إلى العاجلة وآثر الحياة الدنيا وأراد أن يعرف أن الآخرة أولى بالإيثار من العاجلة، فله طريقان: إحداهما أن يسمع من غيره أن الآخرة أولى بالإيثار من الدنيا، فيقلده ويصدقه من غير بصيرة بحقيقة الأمر، فيميل بعمله إلى إيثار الآخرة اعتمادا على مجرد قوله، وهذا يسمى تقليدا ولا يسمى معرفة.

والثانية أن يعرف أن الأبقى أولى بالإيثار، ثم يعرف أن الآخرة أبقى، فيحصل له من هاتين المعرفتين معرفة ثالثة، وهو أن الآخرة أولى بالإيثار، ولا يمكن تحقق المعرفة بأن الآخرة أولى بالإيثار إلا بالمعرفتين السابقتين.

فإحضار المعرفتين السابقتين في القلب للتوصل به إلى المعرفة الثالثة يسمى عند الغزالي تفكرا واعتبارا وتذكرا ونظرا وتأملا وتدبرا.

طول الأمل

جاء الكثير من الأدلة في القرآن والسنة على أن طول الأمل لدى الإنسان من الأمور المكروهة التي تحجب حقيقة الدنيا عنه وتخفي عنه حقيقة الموت ويوم الحساب والعقاب، فطول الأمل هو الاستمرار في الحرص على الدنيا ومداومة الانكباب عليها مع كثرة الإعراض عن الآخرة وعدم التفكير فيها. وقد ورد في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الحجر:٣]، وقال تعالى: ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [الحجر:٢-٣]. وقد حذر النبي ﷺ أمته من الاسترسال مع الآمال الملهية عن طاعة رب العباد، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: " لا يزال قلب الكبير شاباً في اثنين: في حب الدنيا، وطول الأمل ".

ولكن مفهوم طول الأمل المذموم في القرآن والسنة غير مفهوم الأمل الذي يعني أن الإنسان يفكر في المستقبل بنظرة متفائلة ويهيئ له السبل والوسائل، ويعمل من أجل الغد ويخطط له. فالمقصود بطول الأمل المذموم هو التركيز على الدنيا فقط دون الآخرة، وقد قيل في الأثر "طول الأمل يشغل عن العمل"، أي أن الأمل وحده يشغل الإنسان عن العمل لليوم الآخر.

فقد أمر الله سبحانه بالعمل في الدنيا، دون نسيان أمر الآخرة، وأمر بالتمتع بما أحله لنا من الطيبات فيها، وأمر بالزواج وإنجاب الذرّية حتى يستمر نسل الإنسان في هذه الحياة إلى أن يأذن الله بنهايتها، وقد قال تعالى: ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [القصص:٧٧]، وقال ﷺ: "اعمل

لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا". فالعمل للدنيا والآخرة في وقت واحد هو المطلوب، حتى يكون هناك توازن في حياة الإنسان، ومهما طال عمر الإنسان وأمله لا بد يأتي يوم يرحل فيه، فقد قال تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة:٩٦]، فليست النجاة بطول الأجل، وإنما النجاة بحسن العمل.

ولذلك نجد أن أبا حامد الغزالي في الإحياء يتحدث كثيرا عن طول الأمل، ويعتبره من الأمور القبيحة التي يجب أن يتخلص منها الإنسان حتى يكون مؤمنا صادقا يربح الدنيا دون أن يخسر الآخرة.

وقد بين الغزالي أن طول الأمل له سببان، أحدهما حب الدنيا والآخر الجهل.

أما حب الدنيا فهو أن الإنسان إذا أنس بها وبشهواتها ولذاتها وعلائقها، ثقُل على قلبه مفارقتها وصار فراقها صعبا عليه، فامتنع قلبه من الفكر في الموت الذي هو سبب مفارقتها، وكل من كره شيئا دفعه عن نفسه، والإنسان مشغوف بالأماني الباطلة فيمني نفسه أبدا بما يوافق مراده وإنما يوافق مراده البقاء في الدنيا.

ويرى الغزالي أن الإنسان الذي يحب الدنيا ويغره طول الأمل لا يفكر في العمل للآخرة، بل يُسوف ويعطي لنفسه الوعود، بحجة أن الأيام أمامه لكي يعمل الخير ويقوم بواجباته في العبادة، ويخطط للتوبة عندما يكبر في السن، فإذا كبر قال مع نفسه حتى يصير شيخا، وحتى يكمل هذا المشروع أو يبني هذه الدار أو يرجع من هذا السفر، وحتى يتفرغ للعبادة، ولكن الموت قد يأتيه بغتة وعلى حين غفلة منه.

يقول أبو حامد عن هذا الإنسان: "فَلَا يَزَالُ يُسَوِّفُ وَيُؤَخِّرُ، وَلَا يَخُوضُ فِي شُغْلٍ إِلَّا وَيَتَعَلَّقُ بِإِتْمَامِ ذَلِكَ الشُّغْلِ عَشَرَةُ أشغال أخرى، وهكذا على التدريجيُؤَخِّرُ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ، وَيُفْضِي بِهِ شُغْلٌ إِلَى شُغْلٍ بَلْ إِلَى أَشْغَالٍ، إِلَى أَنْ

تختطفه الْمَنِيَّةُ فِي وَقْتٍ لَا يَحْتَسِبُهُ، فَتَطُولُ عِنْدَ ذَلِكَ حَسْرَتُهُ، وَأَكْثَرُ أَهْلِ النَّارِ وَصِيَاحُهُمْ مِنْ سَوْفَ يَقُولُونَ وَاحُزْنَاهُ مِنْ سَوْفَ".

هذا فيما يتعلق بحب الدنيا، وهو السبب الأول في طول الأمل. أما السبب الثاني فهو الجهل. ومعنى الجهل عند الغزالي أن الإنسان قد يعول على شبابه فيستبعد قرب الموت مع الشباب، ولا يفكر هذا المسكين أن شيوخ بلده لو عُدوا لكانوا أقل من عشرة رجال، لأن الموت يأتي كثيرا في سن الشباب، حيث يموت ألف صبي بينما يموت شيخ واحد.

وقد يستبعد الإنسان الموت أيضا بسبب صحته، ولا يدري أن الموت منه غير بعيد، وإن كان بعيدا فالمرض يأتي فجأة، وكل مرض فإنما يقع فجأة، وإذا مرض لم يكن الموت بعيدا، ولو تفكر هذا الغافل وعلم أن الموت ليس له وقت مخصوص مِنْ شَبَابٍ وَشَيْبٍ وَكُهُولَةٍ وَمِنْ صَيْفٍ وَشِتَاءٍ وخريف وربيع،ومن ليل ونهار، لعظُم استشعاره واشتغل بالاستعداد له، ولكن الجهل بهذه الأمور وحب الدنيا دفعاه إلى طول الأمل وإلى الغفلة عن تقدير الموت القريب، فهو يظن أنه يشيع الجنائز ولكنه لن يشيع جنازته هو، ويتصور أن الموت لا يحصل إلا لغيره لا له هو. ولكي يعالج الإنسان نفسه عليه أن يقيس نفسه على الآخرين، ويفكر بأنه لا بد أن تُحمل جنازته يوما ويدفن في قبره، بل ربما كان الطين الذي يبلل قبره قد ضُرب وفُرغ منه وأصار جاهزا، ولكنه لا يفكر فيه، بسبب طول الأمل والتسويف.

ينصح أبو حامد الغزالي بالتغلب على هاتين الآفتين، وهما حب الدنيا والجهل، حتى يتغلب على طول الأمل. أما الجهل فيُدفع بالفكر الصافي من القلب الحاضر، وبسماع الحكمة البالغة من القلوب الطاهرة.

وأما حب الدنيا فإن الغزالي يرى أن إخراجه من القلب صعب جدا، وهو الداء العضال الذي أعيا الأولين والآخرين علاجه، ولا علاج له إِلَّا الْإِيمَانُ

بِالْيَـوْمِ الْآخِـرِ وَبِـمَا فِيـهِ مِـنْ عظيـم العقـاب وجزيـل الثـواب، فـإذا حصـل لـه اليقـين في اليـوم الآخـر غـادر قلبَـه حـب الدنيـا وطـول الأمـل، لأن ذلـك يجعلـه ينظـر إلى حقـارة الدنيـا وزوالهـا، وإلى عظمـة الآخـرة وبقائهـا. ولا يوجـد عـلاج لحـب الدنيـا كـما يـرى الغـزالي سـوى النظـر إلى مـن مـات مـن الأقـران والأقـارب، وكيـف أنهـم ماتـوا ولم يكونـوا يحتسـبون.

يقـول أبـو حامد:"فلينظـر الإنسـان كل سـاعة في أطرافـه وأعضائـه، وليتدبـر أنهـا كيـف تأكلهـا الديـدان لا محالـة، وكيـف تتفتـت عظامهـا، وليتفكـر أن الـدود يبـدأ بحدقتـه اليمنـى أولا أو اليـسرى، فـما عـلى بدنـه شيء إلا وهـو طُعمـة الـدود، ومـا لـه مـن نفسـه إلا العلـم والعمـل الخالـص لوجـه الله تعـالى، ثـم يفكـر في عـذاب القـبر وسـؤال منكـر ونكـير وفي الحـشر والنـشر وأهـوال القيامـة وقـرع النـداء يـوم العـرض الأكـبر، فأمثـال هـذه الأفـكار هـي التـي تجـدد ذكـر المـوت عـلى قلبـه وتدعـوه إلى الاسـتعداد لـه.

وقـد رأى الغـزالي أن النـاس تتفـاوت في طـول الأمـل وحـب الدنيـا، فمنهـم مـن يأمُـل البقـاء ويشـتهي ذلـك أبـدا، قـال الله تعالى:"يـود أحدهـم لـو يعمـر ألـف سـنة". ومنهـم مـن يأمـل البقـاء إلى الهـرم وهـو أقـصى العمـر الـذي شـاهده ورآه، وهـو الـذي يحـب الدنيـا حبـا شـديدا، قَـالَ رَسُـولُ اللهَّ ﷺ:"الشـيخ شـابٌّ في حـب طلـب الدنيـا وإن التفَّـتْ تَرَقْوَتَـاه مـن الكـبر، إلا الذَيـن اتقـوا وقليـل مـا هـم"، والتَّرَقْـوَةُ عظْمـة بجانـب الرقبـة. ومنهـم مـن يأمـل إلى سـنة، فـلا يشـتغل بتدبـير مـا وراءها،فـلا يقـدر لنفسـه وجـودا في عـام قـادم، ولكـن هـذا يسـتعد في الصيـف للشـتاء وفي الشـتاء للصيـف، فـإذا جمـع مـا يكفيـه لسـنته اشـتغل بالعبـادة. ومنهـم مـن يأمـل مـدة الصيـف أو الشـتاء فـلا يدخـر في الصيـف ثيـاب الشـتاء ولا في الشـتاء ثيـاب الصيـف. ومنهـم مـن يرجـع أملـه إلى يـوم وليلـة فـلا يسـتعد إلا لنهـاره وأمـا للغـد فـلا. ومنهـم مـن لا يجـاوز أملـه سـاعة كـما قـال ﷺ :"يـا عبـد الله، إذا أصبحـت فـلا تحـدث نفسـك بالمسـاء، وإذا أمسـيت فـلا تحـدث نفسـك

بالصباح". ومنهم من لا يقدر البقاء أيضا ساعة، كَانَ رَسُولُ اللهَّ ﷺ يتيمم مع القدرة على الماء قبل مضي ساعة، ويقول لعلي: لا أبلُغه. ومَنهم من يكون الموت نصب عينيه كأنه واقع به، فهو ينتظره، وهذا الإنسان هو الذي يصلي صلاة مودع، وفيه ورد ما نقل عن معاذ بن جبل رضي الله تعالى عنه لما سأله رسول الله ﷺ عن حقيقة إيمانه،فقال :"ما خطوت خطوة إلا ظننت أني لا أُتبعها أخرى"، وكما نقل عن الأسود وهو حبشي، أنه كان يصلي ليلا ويلتفت يمينا وشمالا، فقال له قائل:"ما هذا؟"،قال:"أنظر ملك الموت من أي جهة يأتيني".

ذكر الموت

الموت نهاية كل حي، وخاتمة كل سير، وهو مقصود كل ما سبق وقدمناه من فضائل لدى الإمام الغزالي، إذ الأعمال كلها في هذه الحياة الدنيا تصب في هذا المآل الذي ينتظر كل ابن آدم، فيكون شقيا أو سعيدا، فمن تأمل في الموت ووضعه بين عينيه استعد له، لأنه يعرف أن ما عمل يعمله لا بد يجازى به أو يحاسب عليه.

وقد نصح الغزالي بالإكثار من ذكر الموت لدى المسلم، حتى لا يعيش في غفلة ويأتيه ملك الموت على حين غِرة ولم يُعد له العدة من الأعمال الصالحة والتوبة، ولذلك قال: "اعلم أن الموت هائل وخطره عظيم، وغفلة الناس عنه لقلة فكرهم فيه وذكرهم له، ومن يذكره ليس يذكره بقلب فارغ، بل بقلب مشغول بشهوة الدنيا، فلا ينجع ذكر الموت في قلبه، فالطريق فيه أن يفرغ العبد قلبه عن كلمنها".

إن فلسفة الموت عند الإمام الغزالي ترتكز على قلب كل الحسابات والترتيبات الموجودة في الحياة الدنيا، لأن الموت يساوي بين جميع البشر، لا فرق بين مالك ومملوك، ولا بين سيد وعبد، ولا غني وفقير. فمن كان في هذه الدنيا هو السيد سوف يضعه عمله بعد الموت في مرتبة أقل بكثير من مرتبة العبد، لأن كل ما كان يملكه الإنسان في هذه الدنيا سوف يتركه وراءه ولن ينفعه في آخرته، قال تعالى: "يوم لا ينفع مال ولا بنون، إلا من أتى الله بقلب سليم"، وقال تعالى: "يود المجرم لو يفتدي من عذاب يومئذ ببنيه، وصاحبته وأخيه وفصيلته التي تؤويه ومن في الأرض جميعا ثم ينجيه، كلا".

وقد أدرك الغزالي هذا المعنى في الموت، وأنه خاتمة كل جبار، فقال في مفتتح دعائه في الباب الذي خصصه لذكر الموت، في عبارات معبرة: "الحمد لله الذى قصم بالموت رقاب الجبابرة، وكسر به ظهور الأكاسرة، وقصر به آمال القياصرة الذين لم تزل قلوبهم عن ذكر الموت نافرة، حتى جاءهم الوعد الحق، فأرداهم في الحافرة، فنُقلوا من القصور إلى القبور، ومن ضياء المهود إلى ظلمة اللحود، ومن ملاعبة الجواري والغلمان إلى مقاساة الهوام والديدان، ومن التنعم بالطعام والشراب إلى التمرغ في التراب، ومن أنس العشرة إلى وحشة الوحدة، ومن المضجع الوثير إلى المصرع الوبيل. فانظر هل وجدوا من الموت حصنا وعزا، واتخذوا من دونه حجابا وحرزا. وانظر هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا، فسبحان من انفرد بالقهر والاستيلاء، واستأثر باستحقاق البقاء، وأذل أصناف الخلق بما كتب عليهم من الفناء، ثم جعل الموت مخلصا للأتقياء، وموعدا في حقهم للقاء، وجعل القبر سجنا للأشقياء وحبسا ضيقا عليهم إلى يوم الفصل والقضاء".

وإذا كانت خاتمة ابن آدم هي الموت ودخول القبر، وكانت تلك النهاية نهاية حتمية لكل إنسان، فإن العاقل اللبيب هو من يفكر في خاتمته ويعمل لها عملها، ويهيئ لها عدتها، ويستعد لها بما يستطيع من العمل الصالح وأعمال البر والتقوى والعبادة، لا أن يكون من الغافلين المغفلين، مثل شخص يرقص لاهيا في بيت خربٍ حتى يسقط عليه السقف.

إن الإمام أبا حامد الغزالي يوجه الإنسان المؤمن إلى التفكير في الموت، الذي هو عاقبة كل حي، فيقول: "جدير بمن الموت مصرعه والتراب مضجعه، والدود أنيسه، ومنكر ونكير جليسه، والقبر مقره وبطن الأرض مستقره، والقيامة موعده والجنة أو النار مورده، أن لا يكون له فكر إلا في الموت، ولا ذكر إلا له، ولا استعداد إلا لأجله ولا تدبير إلا فيه، ولا تطلع إلا إليه، ولا تعريج إلا عليه، ولا اهتمام إلا به ولا حول إلا حوله، ولا انتظار وتربص إلا له.

وحقيق بأن يعد نفسه من الموتى ويراها في أصحاب القبور، فإن كل ما هو آت قريب، والبعيد ما ليس بآت، وقد قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَلما بعد الموت"، ولن يتيسر الاستعداد للشيء إلا عند تجدد ذكره على القلب، ولا يتجدد ذكره إلا عند التذكر بالإصغاء إلى المذكرات له، والنظر في المنبهات عليه".

إن العدو الأكبر لذكر الموت، الذي يساعد على الغفلة عن ذكره والتفكير فيه، هو حب الدنيا والانغماس فيه، والغرق في ملذاتها، والجري وراء المال والجاه ومتاع الدنيا الذي هو متاع قليل، فهذا الصنف من الناس هو الذي غرته الدنيا، ولا يذكر الموت إلا في مناسبات معينة، لكنه حين يذكره يتخوف منه ويريد أن يهرب منه بالنسيان؛ وقد قال الغزالي إن الْمُنْهَمِكَ فِي الدُّنْيَا الْمُكِبَّ عَلَى غُرُورِهَا الْمُحِبَّ لِشَهَوَاتِهَا، يَغْفُلُ قَلْبُهُ لَا مَحَالَةَ عَنْ ذِكْرِ الْمَوْتِ، فَلَا يَذْكُرُهُ، وَإِذَا ذُكِّرَ بِهِ كَرِهَهُ وَنَفَرَ مِنْهُ، أُولَئِكَ هُمُ الَّذِينَ قَالَ اللهُ فِيهِمْ: "قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون".

ويقول الغزالي أيضا إن النَّاس إِمَّا مُنْهَمِكٌ وَإِمَّا تَائِبٌ مُبْتَدِئٌ، أو عَارِفٌ مُنْتَهٍ توقف عن الاغترار بالدنيا "أَمَّا الْمُنْهَمِكُ فَلَا يَذْكُرُ الْمَوْتَ وَإِنْ ذَكَرَهُ فَيَذْكُرُهُ لِلتَّأَسُّفِ عَلَى دُنْيَاهُ، وَيَشْتَغِلُ بِمَذِمَّتِهِ، وَهَذَا يَزِيدُهُ ذِكْرُ الْمَوْتِ مِنَ اللهِ بُعْدًا. وَأَمَّا التَّائِبُ فَإِنَّهُ يُكْثِرُ مَنْ ذِكْرِ الْمَوْتِ، لِيَنْبَعِثَ بِهِ مِنْ قَلْبِهِ الْخَوْفُ وَالْخَشْيَةُ، فيفي بتمام التوبة، وربما يكره الموت خيفة من أن يختطفه قبل تمام التوبة، وقبل إصلاح الزاد، وهو معذور في كراهة الموت، ولا يدخل هذا تحت قوله ﷺ: "من كره لقاء الله كره الله لقاءه"، فإن هذا ليس يكره الموت ولقاء الله، وإنما يخاف فوت لقاء الله لقصوره وتقصيره، وهو كالذي يتأخر عن لقاء الحبيب مشتغلا بالاستعداد للقائه على وجه يرضاه فلا يعد كارها للقائه".

إن أفضل مرتبة لدى الإنسان المؤمن هي مرتبة الإنسان العارف، أي الذي عرف حقيقة الدنيا وحقيقة الآخرة، وعرف أن الدنيا زائلة والآخرة باقية، فهذا هو الصنف الذي يذكر الموت ذكرا مستمرا على الدوام، لأنه يدرك بحقيقة قلبه وحقيقة الوحي أن الموت موعد للقاء مع الله سبحانه وتعالى مهما طال الغياب، بل إن هذا الإنسان المؤمن يدرك بأن الموت فرصة للقاء بالحبيب، وهو يستبطئ الموت ويراه بعيدا، لذلك يستعجله ويحب مجيئه ليتخلص من دار العاصين وينتقل إلى جوار رب العالمين.

وقد قَالَ رَسُولُ اللهَّ ﷺ :"أكثروا من ذكر هادم اللذات"، ويرى الغزالي أن معنى هذا الحديث: نَغّصوا اَللذات بذكر الموت حتى ينقطع ركونكم إليها وفرحكم بها، فتُقبلوا على اللهَّ تَعَالَى. وقال أنس رضي الله تعالى عنه: قَالَ رَسُولُ اللهَّ ﷺ: "أَكْثِرُوا مِنْ ذِكْرِ الْمَوْتِ فَإِنَّهُ يُمَحِّصُ الذُّنُوبَ ويزهد في الدنيا"، وقال ﷺ: "كفى بالموت واعظا".

ومما يساعد على ذكر الموت دفن الموتى، وقد قال عمر بن عبد العزيز:"ألا ترون أنكم تُجهزون كل يوم غاديا أو رائحا إلى الله عز وجل، تضعونه في صدع من الأرض، قد توسد التراب وخلّف الأحباب وقطع الأسباب؟".

وكذلك زيارة المقابر، فإنها عبرة وتذكير بالموت وبدخول القبر.

وتحدث الغزالي عن سكرات الموت وأحوال الإنسان مع خروج الروح، وهي أخطر المراحل في حياة الإنسان وأكثرها رهبة. وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لكعب الأحبار: يا كعب، حدثنا عن الموت. فقال:" نعم يا أمير المؤمنين، إن الموت كغصن كثير الشوك، أُدخل في جوف رجل، وأخذت كل شوكة بعِرق، ثم جذبه رجل شديدَ الجذب، فأخذ ما أخذ وأبقى ما أبقى". وهذه صورة رهيبة لسكرات الموت.

ويذكر الغزالي أن للموت ثلاثة أحوال، الحال الأولى شدة النزع وهي صعوبة سكرات الموت، والحال الثانية مشاهدة صورة ملك الموت، ودخول

الروع والخوف منه على القلب، فلو رأى صورتَه التي يقبض عليها روح العبد المذنبِ أعظمُ الرجال قوة لم يطق رؤيته.

أما الحالة الثالثة فهي أن العصاة والمذنبين يشاهدون مواضعهم من النار عند النزع الأخير، وذلك مصداقا لقول النبي ﷺ: "لن يخرج أحدكم من الدنيا حتى يعلم أين مصيره، وحتى يرى مقعده من الجنة أو النار".

ويقول الغزالي إن أفضل البشر وخير البرية وحبيب رب العالمين وهو النبي ﷺ توفي، وفي موته عبرة لنا، لأنه لو كانت الدنيا تدوم لأحد لدامت له، ولذلك على المرء أن يهيئ نفسه للموت في كل يوم، ويتذكر أنه راحل ولا بد، ويعرف مكانه هل هو إلى الظالمين أقرب أم إلى المتقين، كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾ [مريم:٧١-٧٢].

الفهرس

تمهيد ٧
الغزالي والبحث عن الذات ٩
العقل ٢٧
النظافة ٣٣
فلسفة الصلاة ٣٩
آداب الطعام ٤٣
الصحبة والأخوة ٤٧
حقوق اللسان ٥٣
الصدق والإخلاص ٥٩
العزلة ٦٥
المخالطة والتجارب ٧١
السفر ٧٧
السماع الصوفي ٨٣
القلب والنفس ٨٩
حسن الخلق ٩٥
تأديب الصبيان ١٠١
الجوع والشبع ١٠٧
فضول الكلام ١١٣
الكذب ١١٩

الغضب ١٢٥
الحسد ١٣١
حقيقة الدنيا ١٣٧
البخل والسخاء ١٤٣
الخوف والرجاء ١٤٩
الكبْر والعجب ١٥٥
الغرور ١٦١
الفقر والزهد ١٦٧
الإخلاص ١٧٣
التفكر ١٧٩
طول الأمل ١٨٣
ذكر الموت ١٨٩